الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مرتين فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الخامس — ١٩ محرم سنة ١٣٥٦ — ١ ابريل سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة
٢٦٦ الوصية قصة دى موباسان ... ...
بقلم أحمد حسن الزيات ... ...
٢٧٠ الدكان أقصوصة مصرية ... ...
بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ...
٢٨٢ غرام الشعراء أقصوصة فرنسية : ف . ف
٢٨٥ يوميات نائب فى الأرياف صور مصرية ...
بقلم الأستاذ توفيق الحكيم ... ...
٢٩٠ ضحية للكاتب الفرنسى أندريه كورتيس
بقلم الدكتور محمد الرافعى ... ...
٢٩٧ الصنم للكاتب الروسى ليونيد الدريف
بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى ... ...
٣٠٧ احتفاء المشوم للكاتبة الايطالية جرازيا دليدا
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب ... ...
٣١١ اعترافات فى القصر لألفريد دى موسيه ...
بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٣١٨ الأوذيسة هوميروس ... ...
بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
٣٢٤ سر أبى الهول لموريس رستان ... ...
بقلم الأستاذ خليل هنداوى ... ...

الرواية

رغب إلينا كثير من أصدقاء الرواية أنهم يفضلون أن تقتصر على نشر الأقاصيص القصيرة ، فان تسلسل القصص الطويلة يخمد نشاط القارئ ويزهق جاذبية الحديث . وفى هذه الرغبة السديدة لا شك سداد ووجاهة . غير أن الفن القصصى كله أوجله فى هذه المطولات الرائعة ، فاذا أغفلناها لهذه الأسباب قطعنا عن الأدب العربى الرافد الأغزر ، وخرجنا بالرواية عن الغرض الأجل . لذلك سنحاول التوفيق بين رغبة القارئ وغرض الرواية بأن نقطع هذه السلاسل فلا نبقى منها إلا الاعترافات والمذكرات ، لأن موضوعاتها تكاد أن تستقل ، وإلا الأوذيسة ، فان أناشيدها توشك أن تنتهى ؛ ثم ننشر من حين إلى حين قصة من بدائع القصص الطويلة كاملة فى عدد واحد . وبذلك تسلم الرواية مساهمة صحيحة فى تغذية القارئ العربى والأدب العربى بما راع وخلد من الفن القصصى الصحيح

عرفت الفتى (رنيه دى برتيفال) شابا عظيم البسطة لطيف العشرة ، تغشى وجهه سحابة رقيقة من الحزن تكاد لا تنقشع ؛ وهو شديد التشاؤم ، صريح التشكك ، لاذع النقد ، بارع السخرية من نفاق الناس واؤم العالم ؛ يقول وكثيراً مايقول : « إن الناس ليس فيهم صالح ؛ وإذا كان فيهم عفة فهى بالأضافة إلى ما فيهم من الدعارة »

كان له أخوان من آل (كورسيل) لا يجمعه وإياهما ظل ، فكنت أظنه من رجل آخر غير أبيهما ، نظراً لاختلاف اسمه عن اسميهما ؛ وقد اضطربت الألسنة فى مناسبات كثيرة بأن حادثاً غريباً وقع فى هذه الأسرة ، ولكنها لم تفصل الخبر ولم تقص الحادث . وحبب إلىّ هذا الشاب كرم شمائله فتوثقت بيننا أسباب الألفة ، واتصلت زيارات المودة

فى ذات مساء سألته عرضاً وأنا أتعشى على مائدته أما وهو من غير ثالث : « أولدت على فراش أمك الأول أم على فراشها الثانى ؟ » فانتسف وجهه قليلاً ثم تضرج ، وبقى لحظة لا يتكلم وقد بدت على محياه ربكة ظاهرة ؛ ثم ابتسم ابتسامته السمحة المذبة وقال : « إذا كنت ياصديقى تنبسط لحديثى وتنشط لسماعه ، فسأقص عليك من نبأ مولدى ومحتدى ما تستغربه . وعهدى بك رجلاً ذكياً فلا أخشى أن يؤذى صداقتك هذا الحديث ؛ وإذا تأثرت به وتألمت منه فلن أحرص بعد اليوم على أن يكون لى منك صديق

إن أمى — عقيلة كورسيل — كانت امرأة حديثة السن حيية الطبع خافضة الجناح ، خطب زوجها منها المال ، وتزوج منها الثروة ؛ فكانت حياتها معه حياة الشهيد المعذب . هذه الفتاة الودود الخرود الرقيقة عاملها ذلك الفلاح الجاف الذى كان يجب أن يكون أبى ، معاملة جافية قاسية من غير هوادة ولا رحمة

لم يكد ينقضى شهر واحد على زواجهما حتى كان يعايش خادمة من الخدم ؛ وكان يتخذ فضلاً عن تلك نساء مستأجرى مزرعته وبناتهم حظايا وخلائل ؛ ولم يمنعه ذلك من أن يكون له من زوجته ولدان ، وقد كان الناس يعدونهم — وأنا فيهم — ثلاثة

كانت أمى تعتصم بالسكوت وتلوذ بالصبر وتعيش فى هذا البيت الصاخب اللاعب كما تعيش الفيران الصغيرة التى تسرق الخطى وراء الأثاث ، وتختلس الأنظار بين الفرش

كانت تنظر إلى القوم وهى مزوية مخفية راجفة بعين ثاقبة قلقة كأنها عين الفزع ، فلا تستقر فى

محجرها ولا تطمئن . على أنها كانت رائعة الحسن ، بارعة الظرف ، شقراء الشعر ، فى شقرتها لون من الشهبة ، ومعنى من الحياء ، كأنما لوّحت شعرها مخاوفها المستمرة

وكان من بين الأصدقاء المختلفين إلى قصر السيد كورسيل ضابط قديم من ضباط الفرسان أرمل مرهوب الجانب ، رقيق القلب ، حاد الطبع ، إذا أزمع أمراً لم يثنه عنه شيء ؛ ذلك هو السيد برنيقال الذى أحمل اسمه . كان رجلاً مديد القامة ، مجدول الخَلق ، خفيف البدن ، أسود السبلتين ، غليظ الشارب ، يشبهنى كثيراً وأشبهه . يقرأ كما يقرأ الأدباء ، ولا يفكر كما يفكر أهل طبقته . كانت جدته العليا صديقة لجان جاك روسو ، فكأنما ورث عنه شيئاً من طريق هذه العلاقة . حفظ كتابيه (العقد الاجتماعى) و (هيلويز الجديدة) عن ظهر قلب ، ودرس سائر كتبه الفلسفية التى مهدت عن بُعد لهذا الانقلاب الذى حدث لعاداتنا الباطلة وآرائنا الفائلة وآدابنا السخيفة

أحب أمى وأحبته كما يظهر ، وظلت هذه العلاقة سراً مكتوماً لا يطير فى جنباتها ظن ، ولا تحوم حولها شبهة . ورأت هذه المرأة المسكينة الحزينة نفسها مفروكة متروكة ، فتعلقت بأسباب هذا الرجل تعلق اليائس ، واتخذت فى معاملتها طريقته فى التفكير ، ونظريته فى العاطفة الحرة ، وجرأته فى الحب المستقل ؛ ولكنها كانت من الحياء والخفر بحيث لا تجرؤ على أن ترفع صوتها بالكلام ، فظلت هذه الأهواء والآراء فى قلبها المغلق مكظومة مركومة مركزة

وكان أخواى كأبيهما قاسيين عليها ، لا يلاطفانها ولا يحفلانها ؛ وقد تعودا أن يريا فى البيت من سقط المتاع ، وأن يعاملاها معاملة الخدم

وقد كنت أنا الوحيد من بين أبنائها الذى بادلها حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص

ثم توفيت وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى . ولابد أن أقول لك لتستطيع فهم ما بلى من الحديث : إن زوجها كان ممهوراً بحكم شرعى يجعل لها الحق فى استقلالها بإدارة أموالها ، فكان لها بفضل حيلة القانون وذكاء المسجل ، أن توصى بما تشاء لمن تشاء

أبلغنا بعد وفاتها أنها تركت عند هذا المسجل وصية ، ثم دعينا الى محضر فضها وقراءتها

لا أزال أذكر ذلك كأنه حدث أمس : كان منظراً عظيماً أليما ، مبكياً مضحكا ، مفاجئاً مدهشاً ، أحدثه تمرد بعد الموت ، واحتجاج من جوف القبر ، وصوت الحرية اليائس ينبعث رهيباً من خلال الناووس المقفل ، يحمل شكوى هذه الفقيدة الشهيدة التى أشقتها أخلاق الناس وسحقتها تقاليد المجتمع

كان الرجل الذى يظن نفسه أبى دموياً لحيا كأنه جزار ؛ وكان أخواى فتيين قويين أحدهما فى الثانية والعشرين والآخر يصغره بسنتين ؛ وكان ثلاثتهم ينتظرون مطمئنين على المقاعد . أما السيد برنيقال ، وقد دعى أيضاً إلى شهود هذه الجلسة ، فقد دخل وأخذ مكانه خلفى ؛ وكان فى رد بجونه الضيقة شاحب اللون كاسف البال يعض شاربه الذى أخذ يشيب ؛ فلا جرم أنه كان يتوقع ما سيحدث

أغلق المسجل الباب بالقفل والرتاج وشرع يفض أمامنا الغلاف المختوم بالشمع الأحمر وهو يجهل ما يحتويه ، ثم أخذ يقرأ :

* * *

أمسك صديق عن الكلام فجأة ؛ ثم قام إلى درج فى مكتبه فأخرج منه قرطاساً قديماً فنشره ثم قبله طويلا ودفعه إلى وهو يقول : « هذه هى وصية أمى المحبوبة فاقرأ » فقرأتها فاذا فيها :

« أنا — آن كاترين جنفييف ماتيلد دى كروا كسيلوس ، الزوجة الشرعية لجان ليوبولد يوسف جونتران دى كورسيل — أعلن وأنا صحيحة الجسم سليمة العقل إرادتى الأخيرة

« استغفر الله أولاً ، وولدى العزيز رنيه ثانياً ، من العمل الذى أريد أن آتيه . وفى اعتقادى أن ولدى من كبر النفس وسمو العاطفة بحيث يفهم حقيقة أمرى ، ويقبل واضح عذرى . لقد قضيت حياتى بائسة معذبة . كان زواجى مسألة حسابية مالية ، فلا غرو أن تكون حياتى الزوجية سلسلة من الأنكار والاحتقار والضيم . يعنف علىّ زوجى من غير رحمة ، ويخاننى من غير هدنة ؛ فأنا أغتفر ما فرط منه إلى ، ولكننى لا أعترف بأن له ديناً على

« وولداى الكبيران لم يحبانى ولم يدللانى قط . كانا قليلا ما يعاملانى معاملة الولد للأم

لقد كنت لهما ما ينبغى أن أكون فى حياتى ، فلست مدينة لهما بشىء بعد مماتى

« إن علائق الدم لا تتوثق بغير المودة الدائمة اللازمة فى كل يوم ، وأما الولد العقوق فهو أبعد من الغريب . وهو مجرم لأن الولد لا ينبغى له أن يستخف بأمه

« لقد كنت أمام الناس أضطرب خجلا وأتفزع وجلا من قوانينهم الباغية وعاداتهم الجافية وأحكامهم المميتة ، ولكننى أمام الله لا أخشى شيئاً ولا أرهب أحدا ؛ فأنا بعد أن مت أطرح عن نفسى هذا الخجل المنافق وأجرؤ على أن أصحر بفكرى وأجهر بسرى

« إذن أوصى بمالى الذى جعل لى القانون حق التصرف به لعاشق المحبوب (بيير جرميه سيمون دى بورنيفال) ليؤول من بعده إلى ولدى وولده رنيه

وإنى بين يدى الله رب العالمين وأحكم الحاكمين أعلن أنى كنت ألمن السماء وأرجم الأرض لو لم يتح لى هذا الحبيب الصادق المخلص ، فأذوق من شفتيه الود المصفّق والحب الموثّق والحنان العطوف ؛ وأفهم بين ذراعيه أن الله خلق الناس ليجتمعوا على الحب ، ويأتلفوا على الصفاء ، ويتعاونوا على الشدة ، ويتضح بعضهم حسرات بعض بالعزاء والدمع

« إن ولدى الكبيرين أبوهما السيد دى كورسيل ، وأما ولدى رنيه فأبوه السيد دى بورنيفال ، وإنى أسأل الله رب البشر ومصرف القدر أن يضع الوالد والولد فوق ظنون الناس وأوهام المجتمع ، وأن يؤلف قلبيهما على الحب مدى الحياة ، وأن يعطفهما على وأنا فى القبر »

(ماتيلد دى كروا كسيلوس)

فلما فرغ المسجل من قراءة الوصية نهض السيد دى كورسيل وصاح : « هذه ولا ريب وصية امرأة مجنونة : » فتقدم السيد دى بورنيفال وقال بصوت قوى حاسم :

« أنا — سيمون دى بورنيفال — أعلن أن هذه الوصية ليس فيها إلا الحق المبين والصدق المحض ، وأنا مستعد أن أثبت ما فيها بما تحت يدى من الرسائل »

حينئذ مشى السيد دى كورسيل الزوج إلى السيد دى بورنيفال الحبيب ، فما شككت فى أنهما سيتقاتلان . وقف أحدهما للآخر : هذا ربيل وذلك هزبل ، وكلاهما واقى الشطاط يتهور بالكلام ويتسعر بالغضب . قال زوج أمى لحبيبها وهو يتزغم ويزمجر :

« يا لك من شقى شرير ! »

فرد عليه الآخر بلهجته وغاظته : « ستلاقى فى غير هذا المكان ياسيدى . ولقد كنت أود قبل اليوم أن ألطمك وأنحداك ، لولا أننى آثرت سلام هذه المرأة التى أشقيتها بخيانتك ، وعذبتها بقساوتك »

ثم التفت إلى وقال : « إنك ولدى ، فهل تريد أن تتبعنى ؟ إننى لا أملك الحق الذى يساعدنى على أخذك ، ولكنى أملكه إذا شئت فجئت معى » فصافحته من غير أن أجيب ؛ ثم خرجنا معاً وأنا أسوأ حالاً من المجنون

وبعد يومين قتل أبى زوج أمى فى مبارزة ؛ فلزم أخواى الصمت اتقاء لعار الفضيحة وسوء السمعة ؛ ونزلت لهما عن نصف ماتركته أمى فقبلاه . وتسميت باسم أبى الحقيق ، ورميت للقانون ذلك الاسم الذى يحالنى إياه وليس لى به صلة . ومنذ خمس سنين توفى السيد دى بورنيفال فحزنت عليه حزناً شديداً حتى لم أملك العزاء عن فقده إلى اليوم

* * *

قال ذلك صديقى الشاب ثم نهض خطا إلى حتى وقف بين يدى وقال : « هيه ! أليس من رأيك أن وصية أمى هى أجمل وأنبل ما تستطيع امرأة أن تعمله ؟ » فبسطت إليه يدىّ الاثنتين وأجبته : « بلى يا صديقى ! ذلك شىء لا ريب فيه »

الزيات

عدد الرسالة الممتاز

سيصدر يوم الاثنين المقبل عدد الرسالة الهجرى الممتاز فى ثمانين صفحة مذهباً بأقلام أقطاب البيان وأعلام الفكر فى مصر وسائر الأقطار العربية ، وإليك بعض أسمائهم مرتبة على حروف الهجاء :

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور
الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
« ابراهيم مصطفى
الدكتور أبو العلا عفيفى
الأستاذ أحمد أمين
« أمين الخولى
« توفيق الحكيم
الدكتور حسن ابراهيم حسن
« شوقى
الأستاذ عباس محمود العقاد
« عبد الرحمن صدقى
« عبد القادر المغربى
« عبد الحميد العبادى
الدكتور عبد الوهاب عزام
الأستاذ على الطنطاوى
« فخرى أبو السعود
« قدرى حافظ طوقان
« محمد أحمد الغمراوى
« محمد سعيد العريان
« محمد عبد الله عنان
الدكتور محمد عوض محمد
الأستاذ محمد فريد أبو حديد
« محمود غنيم

الدكان

للأستاذ عبد القادر المازني

وقفت « جليلة » حائرة لا تدرى ماذا تصنع ، فقد انفرزت إحدى العجلتين الخلفيتين فى الرمل وأبت أن تخرج منه وعجز المحرك عن جذبها ، بل كانت العجلة تزداد غوصاً كلما حاولت نزعها ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ولم يبد أحد فى الأفق ، وكان « الكشك » الذى وقفت عنده منذ لحظة تشرب « الكازوزة » يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين ، فليتها ما جاوزته إلى هذا المكان القفر . . . ولكنها أرادت أن ترى الطيارة الشراعية من مكان قريب ، والأرض بعد « الكشك » غير ممهدة ، ولكن عناء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص ، وقد طوفت من قبل فى أرجاء هذا الفضاء الرحيب فهى تعرف صلابة الأرض ولا تخشى رخاوتها . غير أن الحظ خانها فى هذه المرة فما كادت تقف بالسيارة وتنأى عنها قليلاً ثم ترجع حتى ألفت العجلة قد غاب نصفها فى الرمال الخائنة ، وكان تلاميذ الطيران الشراعى بعيدين عنها بعد « الكشك » ؛ فهل تترك السيارة وتعود أدراجها إلى الكشك تلتمس من صاحبه المعونة وتسأله أن يدعو إلى نجدتها بعض خفرائه ؟ ؟ لم يبق من هذا مفر على ما يظهر وإلا صار خطبها أدهى بعد الغروب . وصح عزمها على ذلك فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها وإذا بصوت يقول لها :

« اسمحى لى . . »

فالتفتت مذعورة فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ، ولا رأته وإن كانت قد دارت بعينيها فى المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع إلى « الكشك » . ولم يسألها الرجل شيئاً ولم ينظر إليها بل انطرح على الرمل بثيابه الأنيقة بعد أن ألقى طربوشه فى السيارة وراح يجرف الرمل بيديه من خلف العجلة وقدامها . ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة نهض ومشى مطرقاً ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شىء ، ثم انحنى وتناول حجراً كبيراً ولوحاً من « الصاج » وعاد بهما فوضع الحجر خلف العجلة واللوح امامها وتحتها ليكون دورانها عليه لا على الرمل ، ثم نهض مرة أخرى وقال :

« أظن هذا يكفى . . فلنجرب على كل حال »

فقالت : « أشكرك . . لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم تنجدنى ؟ »

فأشار بيده وقال : « أجّلى الشكر حتى أستحقه . . إن العجلة المسكينة لا تزال غائصة فلننقذها أولاً »

ومضى إلى آخر السيارة وقال : « أديرى

المحرك وسيرى بها وسأدفعها أنا من الخلف »

ففعلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة أمتار ونزلت منها متهللة الوجه فصاح بها : « لماذا وقفت ؟ . هل حدث شيء ؟ »

قالت : « لا ... إنما جئت لأشكرك ... »

ففرك يديه ومد يمناه إليها وقال : « آه صحيح . صار الشكر الآن واجباً . أليس كذلك ؟ . »

فضحكت وسرها منه أنه لا يبدو عليه أنه يريد شكراً وأنه كان ينتظر منها أن تمضي عنه بلا كلام

وقالت وهي تبتسم له — في عينيه — : « ألا تريد أن أشكرك ؟ »

فقال وهو ينفض الرمل عن ثيابه : « كلا ... إنه دين قديم أؤديه ... بعضه على الأقل »

فغاضت الابتسامة وقالت مستغربة : « دين ؟ . لي أنا ؟ . ولكني لا أذكر ... أني أعرفك ... لا مؤاخذة : »

قال : « صدقيني حين أقول لك إنه يسرني أن أراك ناسية ... إنها ذكرى خليقة ألا تثير في نفسك إلا الامتعاض والنفور بل المقت ... فالحمد لله »

فدنت منه مقدار خطوة وقالت : « ولكن أرجو أن تريحني ... هل تعرفني ؟ »

قال : « أعرفك ... أظن ذلك ... وإن كنت لا أكتمك أني نسيت اسمك ... انتظري (ورفع كفه الكبيرة الغليظة الى جبينه) اسمك ياستي ... غريب ! ! تبقى الصورة كل هذه الأعوام ويذهب الاسم ... أوه جما ... جميلا ... وجدته ! وجدته ! . جليلة ... أليس كذلك ؟ »

فصاحت : « نعم . نعم . ولكني آسفة لأني لا أذكرك أبداً ... لا صورتك ولا اسمك »

فقال بابتسام : « انهما جديران منك بالنسيان »

فألحت عليه أن يذكر اسمه فقال : « هذا لغز سأترك لك حله وأنت عائدة »

فابتسمت وقالت : « ألا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتحدث لي حادثة ؟ »

فقال : « صحيح . صحيح . إذن لم يبق مفر من التضحية ... سأخسر ما صرت جديراً به من الشكر وأسترد سخطك القديم »

فسألته وهي تضحك : « هل كنت فظيعاً إلى هذا الحد ؟ »

فقال : « ستعرفين مبلغ فظاعتي حين تعرفين اسمي . . مراد البارودي »

فأطرقت وقالت على مهل : « مراد . . . البارودي ؟ (وهزت رأسها) كلا . . إن ذاكرتي لا يختلج فيها شيء . . آسفة »

فقال وهو يضحك بدوره : « أما أنا فان ذكراك يضمر لها بدني فما أستطيع أن أنسى أنك صببت على ملء قربتين من الماء في الشتاء . . سلطت على خرطوم الحديقة وأطلقت على ماءه . . أهذه ذكرى تنسى ؟ . . ألست معذوراً إذا ظللت متذكراً . . ؟ »

فدنت منه وقالت بصوت خافت كالهمس : « مراد ؟ . . صحيح ! ! »

فقال : « وكنت ظالمة لي . . »

فقالت : « كلا ... لقد تذكرت الآن ... فقد وضعت لي دودة ميتة في قفاي ... الحق أنك كنت فظيعاً »

فأشار بيده إشارة المستنكر : « لا لا لا ... هذا كان سوء تفاهم . . أعنى أنى كنت فرغت من اللعب بالدودة وظننت أنك قد يسرك أن تأخذيها لتلعبى بها ، ولكنى أخطأت فوضعتها لك فى قفاك بدلاً من يدك ... بل كان الخطأ منك لا منى ، فقد جعلت تجرين خائفة وأنا أجرى وراءك فلم يسعنى إلا أن أتركها لك فى حيث تيسر لى ذلك فالذنب لك يا جليلة »

فقالت جليلة وهى تضحك : « أتذكر كيف كنت تصيح بأعلى صوت كلما رأيتنى ؟ وكيف كنت تجرى ورائى وتدبدب برجليك كلما أدركتنى فتزيدنى رعباً ؟ »

فقال : « نعم أذكر ذلك ... أذكر كل شىء ... إنه كل ما بقى لى منك ... لقد كنت أصيح وأدبدب لأخفى عنك حبى لك »

فقالت : « غريب ... أكنت تحبنى ؟ ... لقد كان نجاحك تاماً إذن فى إخفاء هذا الحب »

ونظرت إلى وجهه الذى لوحته الشمس ، وشعره الذى ظهر فيه الشيب هنا وهنا وأخذت الصورة القديمة تسترد ألوانها وتبرز معالمها شيئاً فشيئاً ثم قالت : « لقد كبرت جداً ... طولاً وعرضاً ... وتغيرت أيضاً ... من الذى يراك الآن فيذكر بك ذلك الطفل الشقى الذى كان يسود عيشى ويرعبنى كلما ظهر لى فجأة من وراء شجرة ... أو من تحت الأرض فيما كان يخيل إلى ؟ ... ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين ؟ »

فقال : « أوه ماذا يصنع الناس بنفوسهم ؟ يكبرون ويقعون على عمل يشتغلون به . . أما أيضاً وجدت لى عملاً . . فى تجارة رابحة والحمد لله . . . وأنت ؟ . »

قالت : « أوه . . كبرت مثلك ... »

فقاطعها وقال : « كلا . . إنك لم تتغيرى ... لو كان هنا دود لما خطر لى وأنا أنظر إليك إلا أننا ما زلنا طفلين ولهممت بأن أضع لك واحدة فى قفاك »

فضحكت وقالت : « لقد صرت مهذباً جداً ... لم يبق شىء من ذلك الطفل اللعين ... غريب ... أعنى أن نلتقى هنا هكذا بعد كل هذه السنين ... ماذا كنت تصنع ؟ . أعنى هنا »

قال : « أتعنى ... للرياضة »

فتنبهت وقالت : « إذن لا أقل من أن أحملك معى فى السيارة »

وقال وهو يركب معها مسروراً : « ما قولك ؟ . نحتفل بهذا اللقاء الذى لم يكن لى ولا لك فى حساب بالعشاء نتناوله فى محل الحاتى . . هه ؟ »

فابتسمت لنفسها فى مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذى عبث به النسيم ثم التفتت إليه وهزت رأسها أن نعم ؛ ثم انطلقت تخطف بسيارتها الأرض

* * *

ولم يكن فى جليلة خفة أو طيش ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة ورثت عن أبيها شدة القلب واستقلال الطبع ، وعن أمها سرعة الاجابة إلى دواعى الخير . وقد مات أبوها قبل سنوات فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمته ، فألقت لها حبلها على غاربها وهى تحسب أنها لا تعدو ما كان يصنع أبوها .

على أن الفتاة لم يكن فيها سوء ولم تثمر الحرية شراً وإنما أكدت استقلالها وأورثتها تمرداً صريحاً على كل قيد من القيود التى يفرضها العرف حتى على الفتاة الحديثة . وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحياناً فتقول لهم : إنى لاأفعل سوءا ولا أسىء أدبى ولا أتوقح على أحد ولا قيمة لخروجى وحدى أو مرافقة أصحابى وصواحبى إلى السينما أو غيرها لأنى أستطيع بسهولة وبلا عناء أن أحافظ على نفسى . فكانت أمها تسكت ولا تقول شيئاً لعلمها أن الكلام لا خير فيه

ولم تكن جليلة بارعة الحسن ولكن صوتها كانت له حلاوة التغريد ، وكانت نظرتها الحالمة تفعل فعلين يبدوان متناقضين — تنعش القلب وتفتر الجسم ، فاذا أدامت إليك كرة الطرف — على عادتها إذا سرها منك عمل أو قول — شاع الرضى فى نفسك وفاضت بالسرور ودار رأسك وأحسست بالخدر فى أعضائك . وكانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، وإلى الامتلاء منها إلى النحافة والهزال ، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشى فى الهواء الطلق وقطام النفس عن الآكال الدسمة الثقيلة أن تصبح كأمها أكداساً من اللحم تلح على روحها ؛ وكانت سمراء ولكن سمرتها مشربة حمرة لا كدرة فيها ولا غمش . وكان شعرها جعدا وأثيثاً وحفاً ، وكانت تفرقه وترسله إلى الوراء وتعقصه وتأبى أن تقصه . وكانت أنيقة بلا تكلف ، ولم تكن رقيقة الحال أو مضطرة الى حسن التدبير والاقتصاد فقد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافية ولكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها فتجىء محبوكة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتها ثدياها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين ، وتكاد من فرط البراعة فى انسجام الثوب على الصدر ترى الحلمتين ترفعان الثوب ، وتبصر استدارة السرة وحسن اللحوق فيما حولها . وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة المضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها . وجمال الساق فى المرأة بشير بحسن القوام . وكانت تكره الأحذية العالية الكعوب نفوراً من بروز الفخذين . على أن هذا كله ما أكثر من يشاركنها فيه . ولو اقتصر الأمر على التكوين المادى لما كانت لها مزية تنفرد بها ، ولكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الاغراء فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب

* * *

وقال مراد وهو عاكف على البيان الذى قدمه إليه الخادم : « معذرة فانى أتضور جوعا ... لم آكل فى نهارى شيئاً ... ماذا تريدين ؟ . كباب ؟ . لحم رأس ؟ . حمام ؟ . إنى أرى الحانى عنده كل ما يؤكل ... لا الكباب وحده ... ما قولك ؟ »

فأثرت الكباب وقالت : « إن هذا فنه الذى يمتاز به فيحسن أن أقتصر عليه »

وكانا جالسين فى آخر القاعة ووجهها هى الى الباب ووجهه الى الناس . وشغلا برهة بالأكل وذكريات الطفولة فقال لها وهو يضطجع : « أتذكرين يوم تحديتك أن تتسلق النخلة ... (فهزت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدى ... فهل أنت ما زلت كذلك . ؟ »

فوضعت الشوكة على الطبق ونظرت اليه وسألته : « ماذا تعنى ؟ »

قال بابتسام : « أعنى أن وراءك ... بعد مائدتين

اثنتين ... رجلين أحدهما يحدق فى ظهرك ... لا يخالجنى شك فى أنك تحسين وقع نظرته على جسمك ... انها نظرة حامية ... كاوية ... انتظرى قليلاً وسأدعو الخادم ليجيئنا بالقهوة فأدبرى وجهك حين يقبل وانظرى ... »

ففعلت ثم اعتدلت فى جلستها وقد علا وجهها الاصفرار ، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى فى وجهها من دلائل التغير . ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه ووقع من نفسها اتفاؤه الفضول فتماسكت وضبطت صوتها وهى تقول : « لقد تغيرت جداً ... من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذى كان يتعقبنى وينغص حياتى يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيس ؟ أتعرف من هذا يا مراد الذى يكوينى بنظراته ؟ ... إنه خطيبى زكى ... أفهمت الآن . ؟ »

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات : « خطيبك .. زكى ... هذه أخبار ... أظن أن من واجبى أن أقدم لك التهنئات » .

ولكنها أحست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أن هذا الخبر لم يسره فقالت : « لا داعى للعجب ... ثم إن الزواج مسألة عادية جداً على كل حال ... أو كما يمكن أن تقول أنت ... هو شر يصيب كل إنسان ... عاجلاً أو آجلاً ... متى يصيبك يا مراد ؟ ... » .

فقال : « أنا ؟ ... لا أدرى ... صاحبك ... أعنى خطيبك لا يزال محلقاً فى ظهرك ... فهل تستطيعين أن تنهضى وتذهبى إليه وتقولى له بكل هدوء إن لك حقاً فى أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثلى وضع فى طفولته دودة فى ظهرك ، وصبيت عليه عشرين قربة من الماء فى الشتاء ؟ ؟ »

فقالت ببساطة : « إنى أحب زكى ... وأنت لا تعرفه ... بالطبع ليس فى كونى معك هنا ما ينبغى أن يسوءه ، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق ؛ كل ما يعرفه أنه خطيبى . . وأنى — كما قال لى مراراً — طائشة ... مندفعة ... »

فقال مراد : « اشربى القهوة ... لا تفسدى على نفسك الليلة ... ستشرحين له كل شىء ... فيعود حملاً وديعاً ويعتذر اليك من هذه النظرات الحامية ... »

فشربت القهوة ولكنها كانت ساهمة ، فقد كانت تحب « زكى » هذا وكانت تكره الاضطرار الى الشرح وتستثقل أن تحتاج حتى الى ما يشبه الاعتذار .

وقال مراد : « لقد قام الرجلان ... خطيبك وصاحبه ... » .

فقالت : « يحسن أن نقوم إذن ... فسيودع صاحبه ولا شك ويقف فى انتظارى ... أشكرك يا مراد ... نبهتنى الى أنه خرج ... فلألحق به » .

وخرجا . وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه وعرف منها عنوانها وألح عليها أن تتصل به إذا جد أمر من جراء لقائهما الليلة .

* * *

وقالت جليلة لزكى : « معى سيارتى فلا حاجة الى تاكسى » .

فدخل فيها واضطجع ثم قال : « من هذا الرجل الذى كان معك ؟ » .

فقصت عليه ما وقع لها عند المطار ؛ فقاطعها وقال : كيف تكلمين رجلا غريباً ؟ ... إن هذا كثير ... » .

قالت : « ولكنه ليس غريباً ... لقد نشأنا معاً ... فى حى واحد ... » .

فنفخ وقال : « ولكنك لم تكونى تعرفين أنه هو صديق طفولتك ... » .

فقالت بلهجة المستغرب : « هل كنت تريد أن أتقبل معونته ولا أشكره على الأقل ؟ ... » .

فترك هذا وقال : « ولماذا تخرجين الى هذا المكان وحدك ؟ »

قالت : لأنك مشغول عنى بأعمالك الكثيرة التى لا تدع وقتاً لمرافقتى ... ومع ذلك أى بأس هناك ؟ » .

قال : « بأس ... بأس ... هذا الذى حدث لك من غوص العجلة أليس بأساً ؟ » .

قالت : « لا تكن متمنتاً ... إن السيارات يمكن أن يحصل لها أى شىء فى أى مكان فى الدنيا » .

فترك هذا أيضاً وقال : « ولكن تأتين معه الى الحانى ... ماذا يقول الناس ؟ » .

فقالت : « إذا كان الحانى مكاناً لا يليق أن يدخله الشريف ... » .

فقاطعها بسرعة وقال : « لست أقول هذا ... الأمر على العكس ... » .

قالت : « إذن انتهينا ... » .

فسكت فما رأى حجة له تنهض . وساءه ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه ، وكان عظيم الطموح واسع الأمل فى المنازل اللحوظة فلم يسره أن الفتاة التى سيتزوجها تقرع حجته بأقوى منها ، وأحس أن فى هذا تنقصاً له وغضاً من مقامه وسقوطاً لهيبته ولكن الكلام خانه فآثر السكوت على مضض .

وكان زكى — أو إذا أردت اسمه كله زكى الدين حمد — من أصل تركى أو شركسى — سيان — وكان يطمع أن يبلغ بماله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالكفاية الشخصية ، وكان أمله الذى لا ينفك يحلم به فى اليقظة والمنام أن يصبح يوماً من أعضاء البرلمان ، ومن أجل هذا كان يتقرب الى الزعماء السياسيين بوسائل شتى ، وكان يعنيه جداً أن يحسن رأيهم فيه وظنهم به ، وكان يحرص على المركز المأمول ويحيط نفسه سلفاً بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار وينظر الى الأمر كله كأنه واقع ، وينتظر من الناس أن يعدوه كذلك ، بل أن يبالغوا ويروحوا يمدون ببصرهم الى المستقبل وأن يخالوه كما يتخيل نفسه فيه وزيراً أو رئيس وزارة .

وقال لجليلة وهو يودعها على باب بيتها : « أرجو يا جليلة ألا تعرضينى لكلام الناس ، واذكرى أن لى مركزاً يجب أن أحافظ عليه » .

فسحبت يدها من يده وقد آلمها كلامه وأحست أن سهماً وقع فى قلبها . وكانت حساسة وذكية . ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيده الغنى ، ولم تكن هى تحتاج منه الى مال فان مالها كثير . وكانت تدرك أن ما يسميه « مركزه » جانب ضعف فيه ولكنها تغض عن ذلك لحبها له ؛ غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها بأنها تسىء الى هذا المركز — وإن كان موهوماً — فضلا عما تنطوى عليه عبارته من التعريض بها بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تخف عنه شيئاً . وماذا تخفى وليس فى الأمر ما يستدعى الكتمان ؟

وقالت له وهى تهم بالدخول : « ليلتك سعيدة »

فسألها : « متى نلتقى غداً ... »

فأطرقت شيئاً ثم رفعت رأسها والتفت إليه

ابتسامة ساخرة وقالت : « غداً ؟ لا ... إنى على موعد مع مراد ... » .

ودخلت . وتركته واقفاً وفمه مفتوح .

ولم يكن ثم موعد ولا شبهه ؛ وإنما قالت ما قالت مدفوعة اليه بضجرها وألمها .

* * *

ولم تحاول أن تلتقى بمراد فى اليوم التالى فقد كانت تدرك أن هذا لا يكون منها إلا خرقاً وحماقة

فلزمت بيتها الى المساء ثم خرجت فى سيارتها على عادتها وجالت بها جولة قصيرة ثم ردت بعض الزيارات وعادت فلزمت غرفتها ، وكان الألم لا يزال يحز فى نفسها فساء نومها واضطرب . وذهب يوم وجاء يوم ولكنها أحست ثقلا فى جسمها وفتوراً فبقيت فى فراشها وأوصت أمها أن تمنع أن يزعجها أحد — حتى ولا زكى — فشعرت الأم أن فى الأمر شيئا ، ولكنها حدثت نفسها أنه خلاف لا يلبث أن يزول . وجاء زكى يسأل عن خطيبته فعرفت الأم أنه لم يلقها منذ يومين ، فأظهرت تعجبها وزلت فقالت إنها كانت تحسب أنها لا تخرج إلا للقائه ، وزل زكى أيضاً فقال لها إن جليلة خفيفة وإن خفتها تسىء الى مركزه ، وإنه كلمها فى ذلك فغضبت ولجت فيما نهاها عنه ، فهو يرجوها أن تكبحها قليلاً فما يليق أن تترك هكذا حبلها على غاربها . وعرفت جليلة هذا الذى دار بين أمها وبين خطيبها فدهشت له ولكنها لم تغضب ولم تثر بل كان من الغريب أنها أحست كأنما وضع لها فى مكان القلب قطعة من الثلج .

وجاء العصر فركبت سيارتها وخرجت بها الى مصر الجديدة . وكان كل همها أن تكون هى وحدها وأن تدور دورة فى الهواء الطلق وتمشى قليلاً عسى أن ينفعها ذلك فيعفيها من الشعور بالانقباض والفتور . وإنها لفى بعض الطريق إذا بها ترى مراداً يمشى بسرعة كأنما يريد أن يدرك موعداً ، فوقفت وأشارت إليه وقد أحست أن جسمها قد صار أخف مما كان . فجاءها يعدو فسألته : الى أين ؟ ... »

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق اليها تحية بل ركب وهو يقول : « أرانا نلتقى فى هذه الأيام ؟ حسن هذا ... أليس كذلك ؟ » .

فأعداها ما فى وجهه من البشر وقالت ضاحكة : « غريب هذا ... تمضى سنوات لا نلتقى فيها مرة واحدة وفى أربعة أيام نلتقى مرتين » ،

فقال : « لا تغلطى يا فتاتى ... ليست هذه مصادفة » .

فنظرت اليه مستغربة وسألته : « ليست مصادفة . . ؟ »

فقال وعلى فمه ابتسامته الوضيئة التى لا تفارقه « كلا ... ليست مصادفة ... إنها إرادتى سلطتها عليك فجذبتك الى حيث أنا ... نعم »

فعاد إليها إشراق وجهها واطمأنت وقالت : « أوه ... آه ... إرادتك ؟ . طبعاً »

فقال : « لا تمزحى ... إنى أتكلم جاداً »

فرمت اليه نظرة سريعة فألفته لا يزال يبتسم فحولت وجهها الى الطريق وقالت : « هذا بديع .. تكلم ... إن أذنى لك »

قال : « نعم ... إرادتى ... لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الارادة فهل تستغربين أنها بلغت من القوة هذا الشأو ! . بالطبع لا ... وأنت أول

من ينبغى أن يكون من تلاميذى المؤمنين بى ... من حوارى . . . هه . . . وسأفتتح بك المهد الجديد ... »

وبلغا آخر الطريق الى المطار من ورائه فجلسا على سلم السيارة وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن فى صمت ، فلما طال ذلك التفتت اليه وقالت : « إنك لا تسألنى ما ذا حدث »

فلم يحول وجهه إليها وأدرك من كلامها أن شيئاً لا بد أن يكون قد حدث ، ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال فاكتفى بأن يقول : « إن أذنى لك ... أعرناك السمع »

فقالت : « إنك قليل الفضول »

قال : « لأنى مشغول عنه بما فى نفسى . . . الدكان غاصة ... لا تحتمل زيادة »

قالت : « لغة التاجر ... اسمع ... غضب زكى ... أوه ... غضب جداً ... لم يقل شيئاً كثيراً ... كل ما قاله أنى خفيفة طياشة وأنى أسىء سلوكى الى مركزه »

فانتفض مراد واقفاً وقد تجهم وجهه ورمى السيجارة ثم التفت اليها وقال بلهجة صارمة :

« من يكون زكى هذا ... »

وكبح نفسه عن الاسترسال ورد لسانه بجهد ، وضبط أعصابه وعاد الى مكانه من السلم والتفت اليها وقال وقد وسعه أن يبتسم مرة أخرى : « معذرة ليس لى حق ... قولى إنك صفحت عنى »

فسرها منه أنه غضب لها وفارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها فقالت له برقة « أشكرك ... إننا صديقان قديمان ... »

فقال لها وهو ينهض مرة أخرى : « قومى نتمشى ... ودعى السيارة فان يخطفها أحد »

وقطعا مسافة وهما صامتان ثم وقف والتفت اليها وقال : « اسمعى يا جليلة . . . إنى أعتمد على ما تخولنى صداقتى القديمة من الحق فى الصراحة ؛ عشرون قرنا من الماء تحمل لى هذا الحق ... أريد أن أقول إنى تحاشيت فى مقابلتنا الأولى أن أكاشفك بما أضمر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة . . لأنك قلت عرضاً إنك مخطوبة . . . ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أن سمعت منك ما قال هذا البغل »

فقاطعته ضاحكة : « اذكر أنه خطيبى ... لا يزال خطيبى ... وأنى قلت لك إنى أحبه »

فقال : « لم يعد هذا يعنينى ... لست أحاول أن أصرفك عنه ... كلا ... ولكنه لم يبق لى بد من أن أقول لك إنى أحبك ، وأنى أحبك مذ كنت طفلة وكنت أعابثك وأكايدك وأصرخ فى وجهك ... وكان هذا مظهر حبى الصبيانى . . . أما الآن فان مظهره أنى مستعد أن أذهب الى خطيبك هذا وأخنقه بيدى هاتين . . »

فقالت ضاحكة : « لقد توهمت لحظة أنك صرت أرق »

فقال : « كلا . . أنا كما كنت . . واسمعى ولا تقاطعى وإلا بحثت عن دودة ووضعتها لك فى قفاك ... إذا حدث يوماً أن صار الدكان للايجار فأخبرينى ... »

فقالت : « لغة التاجر أيضاً . . . ولكنى سأستعيرها منك ... ثق أنك مفضل عندى على كل مستأجر لهذا الدكان إذا خلا يوماً من الأيام . لم يكن يخطر لى أن هذا ما تنطوى عليه لى ... ومن

التى تتصور أن وضع الديدان فى قفاها يكون علامة حب ؟ ولكنك كنت دائماً غريباً . . . على كل حال ... المسألة المهمة أن الدكان مزحوم ... ليس خالياً ... خرجت أستبضع فامتلأ ... صحيح أنه امتلأ بأشياء لاقيمة لها ... ولكنى لم أكن أعرف أن ما غص به عديم القيمة ... المهم أنه ممتلىء ... وأظنك تدرك أنه مادام مملوءاً فلا مكان هناك لجديد ... يجب الصبر حتى أخليه مما فيه ... هذا يحتاج الى وقت ... ومن يدرى ؟ ربما كان الاخلاء أصعب من الملء ... ولكنك تفهم وتعذر . . .

فقال ببساطة وهدوء : « لا بأس .. لا بأس .. إن دكانى أيضاً مزحوم ... ولكنه مزحوم بالنفيس الغالى ... ولست أريد أن أخليه ... لا أستطيع أن أخليه حتى لو أردت ... وهيهات أن أريد أو أستطيع ... إنه مكتظ منذ خمس عشرة سنة . وسيظل مكتظا طول العمر ... وقد عرفت أن مفتاحه معك ... فى يدك ... فادخلى حينما تشائين وعسى أن تشائى ... عدينى أن تخلى مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك ... وفى أثناء ذلك نبقى كما كنا دائما ... صديقين حميمين »

* * *

ولم يسع جليلة إلا أن تفكر فى أمر الرجلين : مراد الرجل الذى تعرفه منذ الطفولة والذى كان يسود عيشها بعيشه لأن هذا كان تعبيره الخاص عن حبه لها ، وقد ظل بعد ذلك يحبها ، ولكنه أحجم عن طلب يدها لرقة حاله بالقياس اليها ، وقد صار تاجراً ، ولكنه لم يثر لأنه لا يربح إلا الكفاية ، ومن هنا إحجامه الى الآن عن خطوبتها كما حدثها ؛ وقد زاد على ذلك أنه كان لا يتصور أن ترضى به فتاة مثلها فكتم حبه وطواه فى صدره ، وسأل الله المعونة على احتمال اليأس المخامر ؛ وهو ظريف كيس لبق دائم البشر واسع الادراك رحيب الأفق حلو الفكاهة . وزكى الغنى الذى لا يزال مهموماً بمركزه المتخيل ، والذى لا يتقى فى سبيل الحرص عليه أن يجرح قلب فتاة ، ويتهمها بالخفة والطيش فى سلوكها ، وبأن سيرتها توشك أن تسىء الى مركزه الموهوم هذا . وقد أحبته ... هذا صحيح . ولكن عينها فتحت فهى تراه الآن على حقيقته ، وليس يسعها إلا أن تفكر فى حياتها معه كيف تكون إذا كان كل ما يباليه فى الدنيا هو هذا المركز . . ولكنها خطيبته وقد قبلت أن تكون زوجته ... فما العمل الآن ؟

وسألت نفسها ... أى الرجلين أحب اليها ؟ وحيرها الجواب ... فهل هذا الذى تشعر به لمراد حب ؟ . إن يكن هذا فهو هادىء جدا ... أما زكى فان الدكان كما قالت لمراد مزحومة ... صحيح أنها مزحومة بما لا قيمة له — كما ظهر الآن — ولكنها مزحومة ... فهل تخلو يوماً ؟ . هذه هى المسألة ... وإلى أن تخلو لا سبيل الى شىء ...

ولو أن زكى ذهب إليها فى ذلك الوقت ولاطفها وتألفها وضاحكها ومازحها واعتذر إليها ، ولو كانت هى فى رأيه المخطئة ، لعادت المياه إلى مجاريها كما يقولون ولارتفعت قيمة ما فى الدكان وارتدت إليه نفاسته ، ولكنه أراد أن يلقنها درساً فأعرض أياماً وجفاها وانقطع عن زيارتها ، ولم يكفه ذلك بل أرسل إليها خادمة تبلغها تحياته وتسألها باسمه عن صحتها . وأوصاها أن تخلق مناسبة لتقول لها إن سيدها يكثر فى هذه الأيام من زيارة بيت خالته

— وكانت لها بنت فى مثل سن جليلة — ليثير غيرتها وإشفاقها من أن يطير العصفور من يدها فأفلح ولكن فى استثارة نقمتها عليه ، فقالت لنفسها إن رجلاً يهينها ويعرض بها ويرميها بان سلوكها من شأنه أن يسىء إلى سمعتها وأن يضر بمركزه ، ثم لا يجعل هذا بينه وبينها بل يفضى به إلى أمها ، ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ، ثم يترقى فى تعمد الاساءة إليها فيرسل إليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها إلى سواها — مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينبت ما بينهما ..

* * *

على أنها لم تتعجل وإن كان عزمها قد صح على الفراق فقد كانت شديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وإرادتها الحرة ، فلم تر ما يدعو إلى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة واستوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت إلى هذا العزم وأن يكون بعده بأيام أو أسابيع ، فقد كانت واثقة أنه ما من شىء يستطيع أن يحولها عنه . وصار عجبها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغص به . ولم تكن تلقى فى تلك الأيام مرادا لأنها أرادت أن تختبر نفسها وتجسها لتعرف ما تنطوى عليه له ، فأدهشها أنها تحس وحشة وأنها تشتهى أن تكون معه وأن تستعيد ما تشعر به فى مجلسه من سكينة النفس واطمئنان القلب والرضى الهادىء . وزاد شوقها إليه أنها كتمت الامر كله عن أمها فلم يكن هناك من تبثه ما فى نفسها ، ولو كان مراد إلى جانبها لكان خليقاً أن يفهم ويعذر ويعطف وأن يسرى عنها بفكاهته التى لا تحتمل ، وأن يعديها بقوته التى تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع فى أمله الذى عاش به سنين وسنين .. وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها فما لقيته إلا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبة . فهل هذا هو الحب الذى يقال عنه إنه يكون من أول نظرة ؟.. أم تراها كانت تحبه منذ عرفته وهى لا تدرى ، وكان حبها له راقداً كامناً ينتظر فرصة للظهور ! لا شك أنها كانت تحبه . كذلك قالت لنفسها وهى راقدة على سريرها بعد الغداء . نعم كان يقسو عليها ويركبها بالمزاح المتعب ، وكان يختبىء لها وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة ترعبها فيضحك ويقهقه . وكان يجرى وراءها حتى تنقطع أنفاسها وتقع من الأعياء .. فيحملها ولكنه لا يرحمها ولا يترفق بها بل يروح يقرصها ويعضها فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبالى . . . ولم تستطع أن تنتقم منه إلا مرة واحدة حين أرسلت عليه خرطوم الماء فأغرقته فجعل ينتفض من البرد ، ولكنه كان يضحك مع ذلك ولم يسخط عليها ولم ينطق بكلمة تشى بالألم أو النقمة أو الغضب ، بل احتمل ذلك . ولما رق له قلبها وأقبلت عليه بالاعتذار إليه وطلب الصفح منه لم ينس دعابته وعبثه ، وبحها كما يفعل الكلب « وَوْ .. وَوْ » ففزعت فما كانت تتوقع شيئاً من ذلك ، ومضت عنه مغيظة محنقة معتقدة أنه شر صبى فى الحارة ؛ وكان هو يقهقه وينطوى من شدة الضحك غير عابىء بالماء والبرد ، فيا لله ما أنواه .. ومع ذلك كانت لا تلعب إلا معه ، وإذا أقبل عليها غيره من الصبية نفرت ... نعم لا شك أنها كانت تؤثره ... ولماذا لا تقول إنها كانت تحبه ؟ صحيح أنها لم تكن تعرف ما الحب ولكنها تعرف الآن فقد صارت خبيرة بجربة فلماذا لا تسمى الشىء باسمه الصحيح ؟

وارتدت من الماضى إلى الحاضر وذكرت كيف غاصت عجلتها فى الرمل ووقفت حائرة وإذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها — كما كان يفعل وهو صبى — ويتطرح على الأرض بلا كلام أو سؤال ولا يبالى ما يصيب ثيابه ، ويحرف الرمل بيديه الكبيرتين ويحمل الحجارة ؟ يفعل كل ذلك ولا يرفع عينه إلى .. ثم يعرفنى فيتلطف فى تذكيرى بنفسه . ويتظاهر بنسيان اسمى وهو منقوش محفور فى قلبه .. وتنازعه نفسه أن يفضى إلى بحبه فيشير إليه من بعيد فى معرض الكلام على ذكريات الحداثة . ويعرف أنى مخطوبة فيفقد كل أمل ولكنه يتجلد ويتكلف الابتسام ويمضى فى مؤانستى بحديثه كأنما لم ينهد كيانه ولم يتقوض بنيانه . وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهاننى به زكى .؟ لقد كانت وثبته تلك حسبى دليلا على عمق ما يجن لى من الحب . ومع ذلك أبت له الكياسة والأدب إلا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زكى مخافة أن أكره ذلك منه ..

وظلت تناجى نفسها على هذا النحو ولا تكتحل عينها بغمض حتى كان العصر فقامت ولبست ثياب الخروج واستقلت سيارتها الصغيرة إلى دكان مراد فأقبل عليها يرحب بها فقالت له :

« أنت أولى من الغريب »

فابتسم وقال : « آه .. أهو ذاك ؟ »

قالت : « نعم . أريد شيئاً من الحرير .. قطعاً كثيرة . ألوانها شتى . الوقت ضيق . »

فقال : « الوقت ! لست فاهما شيئاً . »

قالت : « ألا تعرف أن العروس تحتاج إلى ثياب كثيرة ؟ »

فامتقع لونه ولكنه تجلد وقال : « متى إن شاء الله ؟ لست أطمع أن أدعى ولكنى أريد أن أحتفل بليلة الحلوة وبسرورك فيها . وحدى »

فسألته بخبث : « وحدك ؟ »

فقال : « نعم . أن يكون معى سوى خواطرى »

وأدار وجهه إلى الباب ليخنق زفرة يعلو بها صدره ثم التفت إليها وقال : « متى يكون هذا ؟ »

فرفعت إليه وجهاً مشرقاً ونظرت اليه نظرتها الحالمة وقالت : « متى تريد أن يكون ؟ »

فقطب وقال : « إيه .؟ »

فأعادت سؤالها : « متى تريد أن يكون ؟ »

فحدق فى وجهها — فى عينيها — ثم صاح وقد فطن إلى ما تعنى وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسى غير عابىء بالمال والزبائن وأهوى على فمها باللثمات ثم ردها إلى الكرسى وصاح بأحد رجاله :

« إذهب . إذهب . حالا . حالاً »

فوقف الرجل كالأبله لا يفهم ، ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب فصاح به :

« هات المأذون .. ألا تعرف المأذون يا أبله ؟ . إذهب . . حالاً . . »

فوقفت جليلة وأقبلت عليه تسأله : « ماذا تعنى ؟ . . ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فقال : « ماذا أعنى ؟ . . يا له من سؤال ! . . نعقد العقد . . هنا . . حالاً . . فى الدكان . . هذا ما أعنى .. رجالى وزبائنى شهودى .. شهود سعادتى لقد كان التجار فى الزمن السالف يجيئون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويرينون لهم البضاعة . . وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الاعلانات فى الصحف محل هؤلاء

المنادين ولكنى اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس .. كل الناس أن يدخلوا لا ليشتروا بل ليشاركونى فى سعادتى . . لماذا لم يجىء المأذون . . إذهب أنت وراءه واستعجله »

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضاً — أفرحها أن عقله استطير من فرط الجذل ، وأخجلها أن كل هؤلاء الناس من العمال والزبائن يرونها ، وأن عيونهم جميعاً عليها ، وأنهم يفحصونها ليعرفوا سر هذا السحر الذى ذهب بلب الرجل الذى ألفوا منه الرزانة والسكينة والظرف والعقل . . ولم تكن تقدر أن يفعل ذلك وأرادت أن تستعوله فأبى ، فاقترحت أن يذهبا بالمأذون إلى البيت فأبى أيضاً ، وقال إن ناساً فى هذا الزمان يتزوجون فى الطيارة ، فماذا يمنع أن نتزوج فى الدكان ، فقالت إنه فرق ساعة ، والمسافة إلى البيت لا تستغرق زمناً ، فأبى أيضاً ، وقال إنه يخاف عليها أن تطير وتتسرب فى الهواء . . . كلا . . . لا بد أن يكون العقد هنا

وراقها هذا الجنون وأرهف خيالها فرضيت وتزوجا فى دكان

وقالت له وهما خارجان : « نسيت أن أقول لك إنى وجدت أن الدكان لم يكن خالياً قط ... كان ما فيه مخزوناً من أيام الصبى ، فلما أدرت عينى فيه عرفت ولهذا جئت »

فقبلها على باب الدكان

ولم يستح الرجل !

ابراهيم عبد القادر المازنى

بنـــك مصر

يساعدكم على الادخار من أقرب وأضمن الوجوه

اتصلوا بقسم بيع الأوراق المالية بالتقسيط

واستفيدوا من التخفيض المحسوس والضمان الموفور

خابروا قسم التقسيط رأساً بمركز البنك الرئيسى

بالقاهرة . وفروعه بالأقاليم

ليس للبنك وكلاء متجولون

غرام الشعراء

اقصوصة فرنسية

كانت فتاة أسعدها الحظ وأسعدها الجمال ، ولدت من أبوين أحدهما الثروة وثانيهما الجمال ، فكأن الله أوجدها فتنة للعالمين ، تلعب بألباب الشعراء تارة ، وتارة تلعب بقلوب الطامعين

وكان اسمها مشتقاً من مصدر النصر فدعاها الناس بالأميرة لأنها حكمت إلهين إلهه الجمال وإلهه المال

انتصبت للناس صنما يعبده العاقل والجاهل ، رجل العواطف ورجل الأطماع ، فترنحت أعطافها من سكرة الدلال ، وأصبحت تطالع الملأ من على فتستصغر كل العاشقين

إن رجلاً يسعده الحظ بامتلاك قلب الأميرة ليتسنم فيه عرشين ويمتلك به سعادتين

مرت السنون والأميرة تحسب الدمع خلقة في مآقي الناظرين إليها ؛ ولولا قوة في الكون تسخر المال والجمال لكان قد قضى على الأميرة أن تغادر الدنيا بوحدانية جمالها لا تشرك به أحداً من الناس ، وما تلك القوة إلا الحافز الطبيعي لا يتمرد عليه إلا المتظاهرون بتذليله وهم في ادعائهم كاذبون

وكان في المدينة شاب ولد كما ولدت الأميرة من مصدري المال والجمال ، غير أن إلهه الشعر كان قد نفخ في روح الجنين خلسة فجاء الطفل يحمل إلى الدنيا جذوة الالهام

تصبت الشاعرة محاسن الأميرة فأحبها بروح شاعريته القدسية ؛ ورأت الأميرة فيه ما يهر غرورها فاستسلمت لغرامه ، وتراجع سائر العشاق بذلة الانكسار أمام الشاعر الثري الجميل ، وكان اسمه سعيداً[1] وله صديق اسمه جميل فكتب سعيد إلى جميل يقول :

« لقد رضيت بي زوجاً ، فما أسعدني بهواها ! وإنني لأشك أحياناً في سعادتي فأحسبني واهماً . وهل لمثل هذه الآلهة أن تحب رجلاً يموت ؟

ولكنني أعود إلى رشدي فأسأل نفسي عما دفعها إلى التسليم بقبولي زوجاً لها إذا كانت لا تحبني

لا أراني مضطراً إلى أن أقول لك ، وأنت الصديق الوفي العارف بما في سريرتي ، إنه لا مطمع لي في الحياة الا امتلاك قلب امرأة بكل ما في كلمة الامتلاك من معنى السيادة المطلقة ، تتربع في قلب لا وهن فيه ولا شرك ولا ضلال . أريد روحاً أبادلها روحي وحياة واحدة في جسدين . ذلك حلم الخلود أطمح إلى تحقيقه على هذه الأرض الفانية . إن الله لم يخلق الجمال عبثاً ، فانه وضع في إهاب الأميرة المثير للنيران قلباً يحترق هو نفسه بها . إنني أشكر الله لأنه أنالني ما اشتهيت »

وورد الجواب بهذه الكلمة :

« احذر ، فانك شاعر »

وكانت حفلة زفاف جللتها روعة الجمال ولمعت فيها بروق المال

اهتزت المدينة لهتاف الفرح ، وسار العروسان تحف بهما الأمجاد ويواكبهما العز على طريق السعادة والهناء

(١) ترجمت الأسماء عما يقابلها في العربية

تحت أغصان الربيع أمام الطبيعة الموشاة بحلاها السندسية كان سعيد يناجي عروسه بروح شاعر، وإذ قال لها: ألا تسمعين حفيف أجنحة السعادة حولنا، تنهدت تنهدا عميقا حسبه الشاعر صدى لنبرات إلهامه

وقضى العروسان شهر العسل في قصر من قصور الريف؛ وما مرت أيام بعده حتى أخذت الأميرة تشعر بالضجر في هذه الحياة الهادئة. فأصبحت تتعب من السير في ظلال الأشجار، وتحاذر الجلوس على المروج المزهرة خشية أن تنالها رطوبة من الأرض أو لفحة من الهواء

وكان أمير الشعر يدعو أميرة الجمال لترافقه إلى ممشى القصر القديم حيث يعرض جمالها الرائع على البدر المتطلع من بين الأزاهر الراقصة على أغصانها، ولكن الأميرة كانت تعلن أنها تخاف لفتات البدر وهو العاشق الأبدي يلفح الجباه بنظراته فيورثها الصداع

وعجزت حيلة سعيد عن إبداع ما يعيد الابتسام للجمال العابس، فقرر العودة إلى المدينة

وقال الشاعر في نفسه: لقد يكون قصر الريف قد أثر رياشه البسيط على روح إلهتي فلأقودنها إلى قصر أجدادي حيث الزخارف الرائعة والرياش الفخم، ولا فرق إذا سكن ملاك الجمال كوخاً في الحقول أو قصراً في المدينة؛ ولن يتمكن صخب المجتمع من إقلاق راحتنا وهي تجد في الدنيا، وأنا أجد فيها الحياة

وتفقدت الأميرة غرف القصر وقاعاته وعلى شفتيها ابتسامة الرضى، فهتف الشاعر لها وناجى آلهة إلهامه قائلاً: لقد فهمت أميرتي ما يدور في خلدي، وعرفت ما أحب وما أكره، فأميرتي تمثال أحلامي

* * *

ما أتعس قلب الشاعر! بل ما أبعد هيام الشعراء عن أهواء الناس! إن في بعض النفوس المشتعلة بلهب الأبد غراماً يستنزل العاطفة من عالم التجرد، وما وجدت هذه النفوس في الأرض إلا لتشقى، لأنها تطلب كوثر السماء من كؤوس التراب: تريد حياة من الموت، وتجرداً من المركب المنحل.

وكان الشاعر يجثو أمام أميرته مداعباً أوتار قيثارته فيستنطقها أجمل الأنغام، ولكن الأميرة كانت ترفع يدها إلى جبينها وتشكو الصداع؛ كان يأخذ الشاعر أروع القصائد ويتلوها على مسامع أميرته فلا تلبث أن تحول الحديث إلى بحث أنواع الطعام وما يصعب هضمه منها

كان يبدأ حديثه معها قائلاً: أفلا ترين ياحياة الفؤاد أن ... فتقاطعه شاكية حرارة الجو

وطفق اليأس يراود تجلد الشاعر

وتقدمت الأميرة يوماً إلى عابدها قائلة: ياسيدي العزيز

فانتفض الشاعر وقال في نفسه: لقد جاءت تبادلني حباً بحب، وقلباً بقلب

فقال: أليس جمال الحياة في ...

فقاطعته وقالت: في الأعياد والمراقص واستقبال الأصدقاء. أما حان الزمن للقيام بما يوجبه مقامنا الاجتماعي؟ إنك ستدعو قريباً أهل المدينة لوليمة كبرى يعقبها الرقص إلى الصباح، أليس هذا ما تريد يا سيدي؟

وسقطت صاعقة المادة على رأس ابن الشعر فانحنى منكسراً وفى عينيه دموع وفى قلبه نار

وكتب سعيد إلى جميل يقول :

« ليس بين الناس من يفوق شقاؤه شقائى ، إن أميرتى لا تفهمنى

لقد لاحت على وجهها ليلة المرقص بوادر انبساط وسعادة ما رأيت عليه مثلها ليلة زفافنا . عرفت طبيعة هذه الأميرة ، فهى عاشقة صاف وغرور ، فيها كبرياء وليس فيها عظمة ، فى صدرها أطماع وليس فيه قلب

تقدمت إليها وهى سكرى بانتصار جمالها فقلت لها همساً : أنت ياسيدتى زهرة بلا عطر . أنت امرأة بلا قلب ، وقلب بلا غرام

فلم تفارق الابتسامة شفتيها ، فكأننى لم أقل لها ماقلت . ثم تنازلت وحدقت فىّ قائلة : صدقت ، أيها السيد ، أنا الزهرة التى تسلب الطبيعة روعة جمالها ، وتنشق من النشر أريجه دون أن تجود بعطرها على أحد ...

ومرت أمامى ورأسها يشمخ كبرياء وتوارت بين الراقصين كأنها القمر الضاحك بين النجوم ، ولكننى أذكر أنها زودتنى بنظرة حسيرة لم أتمكن من إدراك مغزاها

اذرف منى دمعة على نفسى ، فأنا أتعس الناس »

وورد جواب الصديق هكذا :

« تذكر ما قلت لك ، فقد تأيد حكمى »

ووقفت أمام قصر الشاعر عربة تجللها رهبة الموت

نزل السائق عن مقعده وضرب باب القصر ، وكانت الشمس تودع الأرض وقد شحب وجهها المحترق . خرج الخدم وتقدموا إلى العربة فوجدوا فيها مولاهم مضرجاً بدمه ، وفى صدره خنجر وبين أصابعه ورقة خط عليها : « ليرحمنى الله ، فما هى الجانية على »

وانطرحت الأميرة على جثة زوجها وقد ريعت لهذا المشهد الهائل ؛ وعند ما ألصقت شفتيها بجبينه البارد كانت تناجى نفسها قائلة :

للزهرة أن تتوّر فى الروض مكتومة الأريج ، فانها إن لم تحى الصدور لا توقف نبضان القلوب ؛ أما المرأة الجامدة المغرورة التى حرمت نفحة الحب فهى بلية على نفسها وخطر على الناس . لعن الله يوماً جئت فيه الحياة بما لا يجدى ، وأنا محرومة من روح الحياة . إذا ما تلاشى الحب فى قلب المرأة فانه ليستحيل إلى سمّ زعاف يسرى فى عروق كل من يمد لها يداً . ويل لعاشق الزهرة البشرية التى لا عطر فيها

ومر جميل على قبر سعيد ليبكيه فرأى قرب اللحد زهرة نبتت بين حجرين حمراء ناضرة تتمايل مع النسيم . جثا الصديق الوفى وصلى فارتفع عبير الاخلاص من روحه ، وبقيت الزهرة كاتمة أريجها وهى شاحبة برأسها تباهى بجمالها

وحانت بين أجفان الصديق الوفى دمعة محرقة فقال :

لعلّ المرأة التى لا تحب قد استحالت إلى زهرة لا تجود بالعبير على قبر الشاعر ، ليكون هذا القبر كمن ثوى فيه مكللاً بحب الجمال محروماً من جمال الحب

ف . ف

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٥ أكتوبر . . .

لم يمكث المأمور عندى طويلاً ، فقد ذهب سريعاً ، وانقطعت عنى أخباره ؛ وطلبته كثيراً بالتليفون فى المركز فلم يدر أحد أين مقره . كل ما عرفوه عنه أنه خرج فى « البوكس فورد » مع المعاون ولم يعد ، وانتظرته طول نهارى لأعرف منه . . ؟ ؟ ولكن النهار انقضى وغربت الشمس وعيل صبرى ، فمشيت بنفسى إلى المركز فلم أفز بطائل ؛ وقال لى قائل : لعله عرج على النادى فهذا ميعاد جلوسه فيه . فاترددت ، وتوجهت إلى النادى فاستقبلنى أعضاؤه دهشين أول الأمر ، ثم هرعوا يقدمون إلىّ « الكرسى » السليم » الوحيد فى تلك الحجرة زيادة فى الاحتفال بى . فسألت عن المأمور فقالوا إنهم لم يروه وأنهم يعجبون لغيابه عن النادى حتى هذه الساعة . فلما علموا منى أنه خرج من الصباح مع المعاون فى « البوكس » ولم يعد صاحوا جميعاً ، من فم واحد :

— لا حول ولا قوة إلا بالله !

وصاح صوت من بينهم :

— ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله !

ولم أفطن إلى مرادهم فى مبدإ أمرى ، ولكن

التفاتة حانت منى إلى المائدة والورق المطروح عليها فى انتظار اللاعبين . ففهمت للفور وتذكرت ما قيل لى من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط فى هذا النادى ، وأنه اعتاد فى أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والعاش حتى لا يموتوا جوعاً إلى أن يقبضوا ، فيلاعبهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر ، وهكذا دواليك . وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها ، وهم يعزون أنفسهم بقولهم : « سواء أكانت النقود فى جيبنا أم فى جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة . . » شىء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف ، هو خروج المأمور بأموال البلدة « للاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحياناً من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفراً من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم . . وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع المعاون ، إلى

أقرب بلدة يلعب «دورين» ويرجع ، وتارة يستقبلون فى ناديهم « منتخباً » قادماً من بلاد أخرى . هنا فى مثل هذه القارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور أعنى مرتبات المركز . . .

على أنى لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولى لهم إن المأمور قد ذهب فى غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدباً واحتشاماً ، ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلاً أثناء شرب القهوة ، إلى أن قال أحدهم فى نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن حضرة القاضى انقطع عن النادى من زمن ... بسبب سوء التفاهم . . . فنظرت إلى المتكلم وقد بدا فى عينى المتسائلة ما دعاه إلى الاسترسال :

— أى نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور

وأمعن فى الثرثرة فقال :

— المسألة أصلها خلاف بين السيدات مع بعض . الست حرم القاضى واقفة مع الست حرم المأمور

فأطرقت صامتا ، وظن الحاضرون أن لى رغبة إلى الاصغاء . . فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلعوا لبعض فوق الأسطح ونزلوا فى بعض « ردح » من النوع « النظيف » ، امرأة المأمور إغاظة فى صاحبتها راحت لبست سترة زوجها الرسمية بالتاج « والضبورة » وغطت رأسها من غير مؤاخذة « بالطرحة أم ترتر » وقالت لها بالصوت العالى : « أنتم حواليكم إلا قلة القيمة ! لا يمشى وراكم إلا حاجب « رباييكيا » نص عمر مكسر صابع شعره . لكن المركز كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام » . قامت امرأة القاضى ونزلت فلبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان البمبى المسخسخ وطلعت تقول لها : « قطع لسانك وليه سفيهة ! أنتم صحيح مالكم إمارة إلا على خفيرين مغفلين ، لكن من فى البلد كلها بقدر يحبس ويشنق ويقول : حكمت المحكمة غيرنا ؟ . »

ولقد أحسست شيئاً من الحرج فى استماعى إلى هذا الكلام ، فما إن فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة فى هدوء ونهضت فى الحال مسلماً مودعاً وانصرفت

سرت فى الطريق إلى منزلى أفكر . ولقد تمهلت فى خطاى ، إذ لم أجد فى نفسى رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع أكداس من الشكاوى المتأخرة أضع أنفى فى تراب ملفاتها . وإن رأسى بعد لمشغول بغياب المأمور ، أتراه قد وجدها ؟.. أين ذهب بها إذن ؟ والشيخ عصفور ماذا جرى له ؟ العجيب فى الأمر أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون ! الحقيقة أننا لم نفطن اليه . لقد استطاع أن يختطفها من يد المأمور فى خفة ومهارة . نعم ، من يد حضرة المأمور لا من يدى أنا . ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه راضية . فهو من غير شك لم يكرهها ولم يحملها قوة واقتدارا . ما سر هذا التأثير وهذا النفوذ العجيب وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل ؟ أتراه قد أغراها بالهرب ؟ ولكن ما الذى يدعوها إلى الهرب ؟ أهى مجرمة ؟ أهذا الجمال الرائع يجرم ! أم نحن المجرمون إذ نظن السوء بالجمال ! إن من العسير على نفسى أن أتصور

الجمال غير مقترن بالفضيلة . الجمال الحق والفضيلة الحق شيء واحد . ولكن المصاب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاه بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن فى أذنى : « ريم » : ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنع وتمثيل ؟ لقد خلعت آهتها قلبي خلعاً فى تلك الليلة . وما أشك فى أن المأمور وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات قد تأثر مثلما تأثرت . فان كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع فى مرابط البقر لا أن نوضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها . وألهتنى هذه الخواطر وحملتنى قدماى من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عيني اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالى والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكنى لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشاً . فلقد لمحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ عصفور جالساً إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها الى الحائط تعباً وإعياء أو كآبة وحزناً . فهمت كل شيء . إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنها اتخذت من الشيخ الأخضر دليلا وصاحباً ومعيناً ، وكان ينبغى لذكائنا أن يتجه فى بحثه الى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إنى بفردى ؛ ولا سلطة لى بغير رجال الحفظ ألقى اليهم بالأمر . لا بد إذن من الذهاب من فورى الى دار المركز لأبعث أحد العساكر يأتى بهما . وأسرعت فى السير قبل أن يعلما برؤيتى لهما فيهربا خوفاً منى . وابتعدت عن المكان وأنا أقول فى نفسى : « لاشك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية . أو أنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينيه البراقتين فى بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل يفضى هذا الشيخ الينا بشيء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ، ولست أدرى أهو حقاً أبله أم خلف هذا الوجه الساذج ... ؟ ؟ وكنت قد بلغت المركز . ورأيت ببابه « البوكس فورد » فعلمت أن المأمور قد عاد ، فأسرعت واقتحمت عليه حجرته فألفيته ملقى على « الكنبة » وقد خلع طربوشه وأمسك القلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكد يرانى حتى صاح :

— المسألة وحياتك فيها شغل سحر : لا بد أن الشيخ الكلب سحر البنت . تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا فى دايرة المركز غيط ذرة ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كفر ولا دوار ولا زرعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعى ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفتشناها شبر شبر . لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك فى البحر كنا وجدناهم . لكن المصيبة أنهم ....

فما تمالكت أن قاطعته :

— المصيبة أنهم على بعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور ! !

فوضع المأمور « القلة » على الأرض ونظر إلىّ فاغرا فاه :

— إيه ؟

فقلت فى شيء من الحدة :

— طير إيه وسمك إيه ! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها .

— المستشفى الأميرى . ؟ !

— قم يا شيخ قل لواحد عسكرى يروح يناديهم من هناك ، بلاش أمور ...

ولم أتم بقية عبارتى ، فقد نهض المأمور فرحا

قبل أن يسمع منى . وصاح بصوت جلجل فى صحن المركز :

— ياشاويش عبد النبى :

فجاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق فى قميص وسراويل بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :

— أفندم سعادة البك ! .

— قم حالاً مع نفرين للمستشفى الأميرى ومعكم قيد جديد ...

فتردد الرجل وقال مقاطعاً :

— « أودة التين » مفتوحة ياسعادة البك والأنفار جارين العليق والفرش للخيل ...

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر : إن شا الله عن الخيل ما باتوا فى ليلهم . قلت لك قم فى الحال

— حاضر يا أفندم !

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى مكتبى بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بى مع المقبوض عليهما . فأنا لا أحب مطلقاً التحقيق فى دار المركز وهى ليست دارى . فرب المركز هو المأمور . ولا أرضى لنفسى أن أكون فى كنفه أثناء عملى . خصوصاً فى هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عجل وأرسلت من يستدعى كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت فى حجرتى جالساً إلى مكتبى أطيل النظر إلى الباب نافد الصبر منتظراً قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء

وسمعت نقراً على باب الحجرة . ودخل المأمور يسألنى للفور عن المطلوبين فأجبت أنى لم أر أحداً بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل من يأتى بهما . وجعل ينظر هو أيضاً الى الباب ويفتل شاربيه . وجاء كاتبى بأوراقه ونشرها أمامى . واستعد كل منا . وإذا بجلبة ترتفع فى الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق الباب علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه الباشجاويش يحمل له عوده الطويل . فوقع فى نفسى فاق . وشعرت بوقع مثله فى نفس المأمور . فقد ابتدر الباشجاويش صائحاً :

— والبنت . . ؟

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يافندم

— وحده . ؟ ! !

فالمأمور كما قلتها أنا فى نفس الوقت ، وقد اختلط فى نفسينا الأسف بالعجب والغضب . وخرج المأمور عن طوره فنهض وصرخ فى وجه الشيخ عصفور قائلا :

— البنت . ؟ !

فلم يبد الرجل حراكا . وأجاب فى هدوء رصين :

— بنت مين ؟

فنظر اليه المأمور نظرة شزراء وقال :

— إنت يا رجل شارب حشيش . ! ؟ شغل الحشيش أنا أفهمه طيب ! !

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ، وأمرت الشيخ أن يدنو منى فدنا فسألته فى رفق :

— ريم كانت معك ؟

فأجابنى الرجل من غير تردد :

أبداً

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتنى عند مرورى بباب المستشفى ، وفهم بذكائه ما سيكون فأخفى الفتاة فى الحال ، أو أن الأمر غير ذلك وأن عينى هى التى خانتنى فلم تكن ريم إلى جانبه ، وأن خيالى السابح فى جو هذه الفتاة قد ألقى صورتها

وأثوابها على امرأة أخرى من الفلاحات المنتظرات بالباب . كل هذا جائز ، ولكن أين ذهبت ريم ؟ ولماذا أنهم بصرى ولا أنهم هذا الشيخ المخاتل ؟ ومن هو أولاً هذا الرجل ؟ وصحت فيه من فورى قائلاً :

تعال يا رجل انت !

— محسوبك .

— من أنت ؟

فنظر إلىّ الرجل نظرة من لم يفهم السؤال .

فألقيت عليه العبارة من جديد فى شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحَب فوق التراب ، وأعبد الرب تحت التراب !

— تكلم جد يا رجل . اسمك ؟

— عصفور .

وأشار إلى يديه وفيها القيود وصاح :

— أطلقونى ! من حب النبى يطلقنى ...

فأمرت العسكر بفك القيد من يديه ، وسألته فى صرامة :

— صنعتك ؟

فتردد الشيخ قليلاً وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه ورجع رأسه إلى الوراء ، وجمدت عيناه كأنهما تنظران إلى شىء لا وجود له فى عالم الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

« أنا كنت صـــياد
وصيد السمك غيّه
نزلت بحر السمك
أصـــطاد لى بنّيه
وعجبنى شكل السمك
فى البحر حواليـــه
واحده بياض شفتشى
والثانيـــة بُلطيـــه
والثالثة من بدعها
سحرت مراكبيّه »

وتنهد فى العبارة الأخيرة واتخذ صوته فيها نبرة عجيبة ذات معنى ارتجفت له قليلاً ، ونظرت من طرف خفى إلى المأمور فرأيته قد اختلجت عيناه ، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل :

— ومن هم المراكبية ؟ ! !

فأطرق الرجل وصمت صمتاً عميقاً . ولست أدرى أهو أيضاً خيال منى أو حقيقة ما اعترانى من شعور بأن هـذا الشيخ قد فهم ... وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة الأولى ... »

(يتبع) نوفيق الحكيم

قصص اجتماعية

مترجمة بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

مجموعة من القصص الرفيع الشائق ثمانية من أعلام الأدب الفرنسى هم : بورجيه . كوبيه . أناتول فرانس ، موباسان . تيريه . مارسل بريفو . دى بانفيل . جان لوران . مع تراجمهم النقدية . ومترجمة بأسلوب فائق . فى ثلاثمائة صفحة طبع دار الكتب

ثمنه ١٠ قروش ويباع مؤقتاً بـ ٦ قروش بخصم ٤٠ ٪ عدا البريد وهو قرشان لداخل القطر وأربعة خارجه ويطلب من إدارة الرسالة وجميع المكاتب

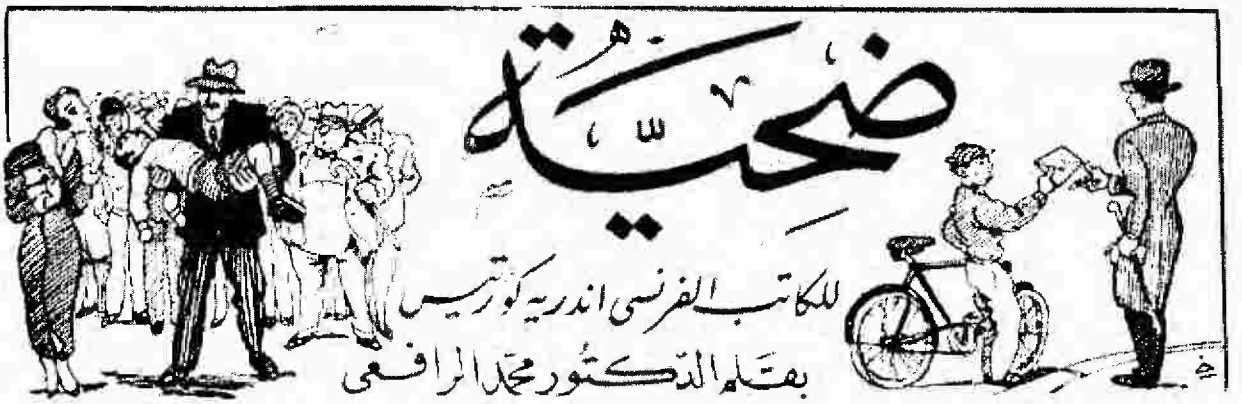

غابت الشمس وأظلم الليل ولف الطريق فى سواده ؛ فانكشف على طرف الأفق نور يزهر فى العتمة وهو يتحرك فيعلو وينخفض كالنذير ليلفت إليه أنظار السابلة . فما أن اقترب منه الأستاذ لاماس حتى أوقف سيارته ثم مد عينيه فى ضوء مصباحها الوهاج فاذا سواد عريض من قطعان الغنم تتابعت فى سيرها مقبلة كالموج يدفع بعضه بعضاً ، وسطع له الضوء على مثل البحر من الصوف ، وملأت مسامعه الضجة من ثغائها ورنين جلاجلها النحاسية وقعقعة أظلافها على أرض الطريق ... ثم أخذ الرعاة يزجرونها وينعقون بها يستحثونها للسير حتى حاذت السيارة فتبعثرت حولها وجعلت تحتك بها فملأت الجو من ريح أصوافها الكريهة ونشرت عليه سحابة من غبارها الخانق ...

وعندئذ انحدر جان ماري من حجر أمه ودنا من نافذة السيارة ففتحها ، وأخذ يلغو ويهلل ويهتف :

— الحراف ... الحراف ... إنها ولاشك مقبلة من جبال الألب ، جبال الثلوج والذئاب ... أترينها بالغة حظيرتها الليلة يا أماه ؟

فصاح به لاماس وله زئير :

— هلا عقلت أيها الأحمق الصغير ... فما لك ولهذا ؟

وأطل الغلام من النافذة مرة أخرى فأبصر حملا صغيراً قد أذهله منظر السيارة فثبت فى موقفه حائراً دهشاً ... وأعجب الطفل بمنظره فصاح :

— ألا ترين هذا الحمل الوديع يا أمى ؟ ألا يمكننا أخذه معنا ؟

فضمته أمه الى صدرها وجعلت تقبله وتحنو عليه ؛ وانفجر الأستاذ لاماس من الغيظ فأعمل محرك السيارة واندفع بها فجأة ، فلم تكد تنبعث حتى وثب له أحد الرعاة وأكرهه على الوقوف ؛ ثم صرخ فيه مزمجراً متهدداً وأراه على ضوء مصباحه جثة الحمل ، وقد فرسته السيارة ودقت أضلاعه ، وكان الدم ينهمر من فمه الصغير ...

وارتاع جان ماري وفزع لهذا المنظر المرعب وجعل يصيح وقد لاذ بأمه . وأخفى رأسه فى صدرها :

— يا للشقى ... يا للشقى ! لقد قتل الحمل ... لقد قتل الحمل !

وأخذت أمه تسكن روعه على حين ارتفع صوت لاماس وقد اشتد الجدال بينه وبين الراعى فى ثمن الفريسة المسكينة . وبعد حجاج ولجاج أخرج الرجل ورقة مالية ورمى بها فى غضب الى صاحب القطيع ، ثم رمى الطفل وأمه بنظرة المتسخط ، وانطلق بالسيارة لا يلوى ...

وكان الرامى قد أنام ذلك الحمل القتيل على يديه كالطفل الصغير فالتوى عنقه وتدلى رأسه فى مسكنة وذبول ... وانطبع هذا المنظر المخيف الهائل فى خيال الأم وزاده هولاً نظرها الى طفلها ، فجعلت تضمه إليها وتهدهده وهو يتشيج فى بكائه وضاق الأستاذ لاماس فصرخ :

— أما آن لك أن تسكت أيها اللعين !

فكانت الصرخة كالضرب ...

وسكت الطفل وأخذ يفكر ... إنه لا يحب هذا الرجل العاتى وهو غريب عنه ، ولم يكن ليقول له « يا أبى » لولا ضراعة أمه إليه ... كلا إنه لا يحبه ولقد أصبح عقته أشد المقت وبعده قاتلا كقتل قاتل ... ألم تكن فى قلبه رحمة ؟ ألم يكن يستطيع الانتظار حتى تجوز الغنم ؟ ولم هذا الغضب ، ولم هذه القسوة ، ولم هذا النظر الشرير ؟ ألا صبراً صبراً ... فهو لم ينس السابقة بعد ... ولكنه سوف يشب شبابه ، وسوف ينتقم ما ينتقم لذلك الحمل ثم ... وأخذت الأفكار تموج فى رأسه وتضطرب وخيل إليه أنه هو تلك الفريسة ، وأن السيارة مندفعة إليه تحطم أضلاعه وتدقه بعضه فى بعض ، فصاح من رعبه :

— يا للوحش ... يا للوحش !

وانحنت عليه أمه متفزعة وسألته عما به ، فأجابها لعله كان يحلم ...

وانطلقت السيارة تحت الليل البارد حتى إذا بلغت نهر الرون عبرته وانحدرت الى نهاية الرصفة ، وهناك منزل لاماس ، فقال هذا الأخير لامرأته :

— اسعدى أنت فأعدى العشاء وسأدخل السيارة فى حظيرتها

وصعدت المرأة فى السلم ثم ذكرت أنها تركت معها خريطة الطريق فأمرت ابنها أن يردها الى السيارة . فلما نزل الطفل ، وقع فى أذنيه صوت صديقه ماليسيه ، وهو طفل أبله ، وكان يحادث لاماس فيسأله هذا الأخير :

— ماذا قالت لك ؟ تكلم وأوضح

فأجاب ماليسيه وهو يقطع ألفاظه :

— لقد أمرتنى « ميون » أن أنتظر هناك لأبلغك أنه لم يأت اليوم أحد

— إذن قل لها إنى سأراها غداً فى الساعة الخامسة

فانتظر جان مارى حتى خرج الغلام ثم دخل فصاح به لاماس :

— ويحك ! ما الذى جاء بك ؟

فكان جوابه أن رمى بالخريطة فى السيارة ، وانسل راجعاً ولم يتكلم

* * *

جلس الأستاذ لاماس يأكل طعامه ، وكان موزع الفكر ، وجعل يرامق زوجته بنظرات كنظرات الأعداء ، وهى غافلة عنه إذ كانت ، كعادتها منذ شهرين ، تهيم فى عالم الخيال تهنئاً بسعادتها ؛ وكان جان مارى يراقبه فيلحظ منه تلك النظرات التى تهدد سعادة أمه ، فيرتاع لها ويود لو صرخ فى وجهه : « أيها القاتل ... أيها القاتل »

وكان من عادة لاماس وهو مدرس علم التاريخ فى الليسيه بمدينة أورانج ، أن يذهب الى تلك المدينة لالقاء دروسه بعد الظهر من أيام الاثنين والاربعاء والجمعة . أما يوم الثلاثاء فيقضيه هناك فى إعطاء الدروس الخاصة . فما الذى عاقه عن السفر اليوم مع أنه يوم الثلاثاء ؟ لقد كاشف زوجته بنيته أن يخرج وإياها الى متنزه فلم تستجب له وذهبت

على خلاف عادتها الى المدرسة ، فصحبت ابنها عند خروجه وجعلت ذلك عذرا تعتذر به ، فغضب الرجل وقال : إن هذا عذر سخيف ... لكن لماذا قال ذلك ؟ آه ... إن جان مارى قد بدأ يفهم .. فبالقرب من المدرسة يقع منزل والدته الاول ... منزلها الذى ولدت فيه وورثته عن أهلها وعاشت فيه مع أبيه قبل أن يُقتل فى حادثة الطيارة ... إنه يذكر هذا المنزل ... لقد كانوا ينزلون منه فى طبقته العليا ، وأبت أمه أن تؤجره بعد وفاة أبيه ، وراعمت فى ذلك زوجها الجديد لاماس ؛ فجاء هذا بالعجوز الدميمة « ميون » وهى ظِئْرُه ، فأسكنها فى الطبقة الأرضية نكاية بامرأته ...

نعم إن جان مارى بدأ يفهم ... فليس من ريب أن أمه انما تعمدت اليوم أن تمر بذلك المنزل لحاجة قلبها الى الذكرى ... ولكن لماذا يغضب لاماس ؟ أليس هذا من حقها ؟ ولماذا يراقبها بتلك النظرات العدوّة ؛ إنه يكايدها منذ شهرين ... فلا جرم أصبحت تندم على زواجها منه وإن كانت فى حاجة الى هذا الزواج لرقة حالها ... ولكن جان مارى لن يكاشفها بما يعلم اشفاقا عليها ... انه رجل ، وإن من واجبه أن يحميها من ذلك الشقى السفاح ... الذى قتل الحمل ...

وجمع تحت المائدة قبضتيه الصغيرتين يهدد بهما الرجل ويتوعده ... !

* * *

أرقدت الأم ابنها فى سريره ، وطبعت قبلتها على جبينه فأمسك بها وقال :

— إنى أخاف عليك يا أماه ... أفلا تبقين معى يا طفلتى الصغيرة ؟

فخفضت من جأشه وخرجت من الغرفة بعد أن أوصته بالنوم . ولكن أنّى له أن يهجع وأمه ستقضى الليل بجانب ذلك الرجل ذى العينين المدوّتين ؟

وثب من سريره وفتح الباب ، ثم صعد السلم يسرق خطاه حذرا أن يسمع خفق قدميه ، ومضى يقترب من حجرتهما ، وكان الضوء يتخايل من أسفل الباب

وأنصت فلم يسمع حسا ، فرابه هذا السكون ... إنه خائف ، ولقد ارتجف ... يا للعجب ! أما من كلمة فى فمه أو فى فمها ؟ كلمة واحدة يسمعها فيسكن إليها

وشق سمعه صوت أمه وهى تقول فى حدة :

— ألم يأن لك أن تخبرنى ماذا بك يا كتوريان ؟

فأجابها لاماس إنه ليس به شىء ، ثم أطفأ النور

وعند ذلك اطمأن جان مارى على أمه فارتد إلى غرفته ؛ بيد أن الأرق استولى عليه فلم يجد النوم إليه سبيلا ؛ فأخذ يفكر فى صديقه ما ليسيه وفيما أرسلته به المرضع العجوز ... ولماذا انتظر فى (الجاراج) ولم يلق الرجل فى المنزل ؟

ثم أشفقت ملائكة النوم على هذا العقل الصغير من الحمى التى انتابته ، فتنفست على وجهه ، فأخذ الكرى بأجفانه ونام ... وارتفع فى الخارج هدير مياه النهر وهى تتلاطم على ضفته الصخرية ، ورفرفت فى الفضاء روح الحمل المقتول ...

* * *

وفى الغداة ذهب جان إلى المدرسة فجلس غائب الفكر مهموماً ، تلقى أمامه الدروس فلا يصغى إليها ولا يفقه منها شيئاً ... ولما انتهت الدراسة أوفض إلى الميدان الذى تعود أن يقابل فيه صديقه ماليسيه فالتمسه حتى وجده ثم ألطفه بشىء خصه به ، وجعل يتسقطه ليكشفه عن سره حتى أفضى به اليه ثم تواطآ معاً على الكتمان

وأسرع جان بعد ذلك إلى المنزل فكان فيه

لوقته المعلوم ؛ ثم جاءت أمه فى عقبه وكانت قد خرجت تبتاع شيئاً من الفاكهة ، فوضعت ما تحمل وأخذت تداعب ابنها وهو ينظر إليها فى إعجاب .. لقد كانت جميلة فى تلك الساعة ففرجت وجنتاها وشع السرور من عينيها ، وتهدلت خصل من شعرها الأسود الفاحم على جبينها المشرق الوضيء

وأرادت أن تسوى شعرها فتناولت مشبنتها[1] وفتحتها لتخرج منها المشط ولكنها بدت من يدها وانقلب ما فيها ، فلحظ جان بين أشيائها مفتاحا وخطابا عفلا من العنوان ، قد علق به الغبار كأنما التقط من الأرض ... فأهوى ليأخذه ولكن أمه أسرعت فاختطفته وغيبته فى حقيبتها وقد زاد احمرار وجهها

وفى تلك اللحظة انشق باب الغرفة وخرج منه لاماس منشعثاً مبتذل لا تمجه العين ، فقال لزوجته فى لهجة المرتاب :

— هل خرجت اليوم يا أنى ؟

وأجابته :

— كانت الخادمة مشغولة بإعداد الطعام فخرجت اشترى الفاكهة .... إنى ذاهبة لأغير ملابسى فراجعة بعد هنيهة

وأخذت ترتقى السلم وقد حملق لاماس فى الموضع الذى سقطت فيه المشبنة ...

* * *

كان ماليسيه فى العاشرة من عمره ، وهو يتيم قد كفلته خالته ، فكان الجيران يمتهنونه فى أعمالهم بشىء من الطعام أو قليل من المال

ولما كانت المرضع « ميمون » مقعدة لا تقوى على الحراك فقد استأجرته هى أيضا فى حاجتها .

وبهذا كان دائم التردد على منزلها . وكان الجميع يتهزأون به ويسخرون منه إلا صديقه جان مارى فبينهما الطفولة والصداقة

والتقى هذان الطفلان كما اتعدا فى الصباح ثم سارا الى دار ماليسيه وتربصا حتى دقت الساعة الخامسة فأسرعا الى موعد الأستاذ لاماس فى منزل ظئره العجوز ، وانسلا اليه من باب خلفى عهد بمفتاحه الى ماليسيه لأطعام الدواجن ، ورأيا وسمعا ....

* * *

جلسوا للعشاء ، وكان جان مارى مرتبكا يود لو أسرعوا فى الطعام مخافة أن يدرك لاماس شيئاً من أمره ، أو يسترب به ، أو يسأله سؤالاً ينكشف فيه ... غير أن الأستاذ كان لاهيا بشأنه وبالأفكار التى تذهب وتجىء فى رأسه . أما والدته فكانت كعادتها شاردة الفكر تلتقى فى الخيال برجل قد عرف جان اسمه منذ ساعتين فقط ...

وفرغوا من الطعام وأوى جان الى فراشه ولم يحاول فى هذه المرة استبقاء أمه الى جانبه ، فالخطر لا يزال بعيداً ولا يزال فى الوقت سعة ؛ ثم هو فى حاجة الى أن يتدبّر ما رآه وما سمعه فى منزل الظئر العجوز ...

كان يكمن فى الغرفة المجاورة ، وجعل يتلصص من ثقب فى الباب ، فرأى لاماس يدخل فيجلس بجانب العجوز ؛ وحدثته فيما حدثته به أنها تسمع فى كل ثلاثاء دبيب خطوات فى الطبقة العليا ، وأنه قد تبين لها أنها خطوات رجل وامرأة ... أما أمس فلم تسمع شيئاً وقد أبلغته ذلك فى لسان ما ليسيه

فأومأ لاماس برأسه وجعل يحدق فى نيران الموقد كما كان يحملق فى الموضع الذى سقطت فيه المشبنة ، وكما كان يرامق زوجته بالأمس ...

(١) المشبنة حقيبة يد المرأة

إنها والله نظرات يغلى بها الدم فى عروق جان مارى المسكين فيفزع فى فراشه كلما تمثلها ...

ونرى من هو كساڤييه دوبيناس الذى جاء اسمه فى حديثهما ؟ كساڤييه ... ! كساڤييه ؟ آه ! لقد تذكره الآن ... فهو شاب مهندس جميل المنظر حسن الشكل ، يعمل فى مناجم الفحم بالمدينة ؛ وقد عرفته أمه فى السنة الماضية على شاطىء البحر ، وكانت تتستر اذا خرجت معه وتحاذر أن يراها زوجها فلم يرها . أما « ميون » فمجوز مقعدة لا تبرح مكانها ، فكيف سقط لها هذا الخبر ، ومن أين لها أن كساڤييه هو الرجل الذى يجتمع بأمه فى الطبقة العليا كل ثلاثاء ! لعلهم يظنون ظناً فقط ...

ولكن لاماس كان يقول للعجوز ويكرر هذا القول :

— إنى واثق من أنه هو بعينه . انه هو بعينه الرجل

وكذلك مر فى الحديث نبأ خروج أمه فى الأيام الأخيرة كل صباح وتلقيها الرسائل تُدَسُّ لها تحت الباب ... ثم قال لاماس

— سوف أتخذ مفتاحاً آخرا لهذا الباب ، وسوف أنصبُ عليهما انصبابا فى الثلاثاء القادم وسترين كيف يكون الانتقام ...

الانتقام ... يا إلهى ! إن حياة أمه كالعلقة فى خيط دقيق ... ماهذه الحمى ؟ إنه يهذى ... هاهوذا لاماس ينصب عليه انصبابا ليأخذه فيقتله ...

ثم أخذ يصيح فى فراشه ففزعت أمه وأسرعت إليه ، ولكنه استمسك ولم يفض إليها بشىء إذ لا يجب فى رأيه أن تعرف هذه العزيزة ما يتهددها خشية أن يفضحها اضطرابها ... وهو وحده سوف يحميها ويمنعها

جعلت الأيام تمر ووجهه يزداد فى كل يوم شحوباً ، وتغضن جبينه من القطوب والتفكر ، ولم تلحظ أمه هذا التغير الذى طرأ عليه فقد شغلتها عنه سعادتها وأحلامها ، وكانت تخرج كل صباح ... إنها هى لاتعلم ولا تحذر ، ولكن جان مارى موجود يتأهب ليوم الثلاثاء ...

* * *

وجاء اليوم الموعود فكان ما ليسيه صديق جان متكئاً الى دراجته على مقربة من مناجم الفحم ، ولبث يترقب خروج دوبيناس حتى رآه مقبلاً فأسرع اليه وقال له فى كلامه المتقطع :

— أمرتنى عقيلة الأستاذ لاماس أن أحمل اليك رسالتها فهى تريد ألا تلقاها اليوم وأن تبقى هنا

عجب دوبيناس وحار فى هذه الرسالة وفى الغرض منها . ألم تجد غير هذا الأبله فتأتمنه على السر ؟ وما بالها لم تكتب اليه بذلك ، وقد فعلت هذا من قبل ، يوم الثلاثاء الماضى ؟

ومنعته بلاهة الغلام أن يستقصى منه ، فألقى اليه بقطعة من النقد واكتفى بسؤاله : أهى مريضة ؟

فهز الغلام رأسه بعلامة النفى ، أومأ بها وهو يعتطى الدراجة ثم اندفع يدرج فى الطريق وقد اطمأنت نفسه إذ وفق فيما عهد اليه

والتقى عند الظهر بجان مارى فأخبره بما صنع ؛ وتهلل جان وسره نفاذ تدبيره المحكم ... ثم وعد الغلام أن يجزيه عشرة فرنكات إن هو كتم السر

وتقشعت سحابة وجهه فتلونت وجنتاه ولمعت عيناه ، ورنت فى صوته نغمات القلب المطمئن الواثق ... إنه سيذهب الآن فيتحدث الى أمه ويكاشفها

ها هى ذى خارجة من غرفتها وقد تهيأت

الموعد وأبدعت زينتها ... ما أجملها ... ويالها من مسكينة ! فهو سيحرمها مقابلة صديقها اليوم ... ولكن أليس هذا الحرمان عطاءً ؟ يوم واحد ثم تقابله بعد ذلك كل يوم ... إنه سيكاشفها غداً ويفضي اليها بكل ما عانى في سبيلها ، وستمده بطاقها العظيم وتعجب به وتقدله كثيراً ... يالها من سعادة ! إنه سعيد ، إنه سعيد ...

* * *

جلسا يأكلان فقال جان لأمه وقد حوّل نظره عنها :

— لقيت اليوم صديقي ماليسيه في رجوعي من المدرسة وكنت قد أعرته دراجتي فأخبرني أنه صادف أثناء نزهته هذا السيد الذي تعرفينه ... أتذكرين ؟ هذا الذي قابلناه على شاطىء البحر ...؟

فاختنق صوت الأم وغمغمت :

— وماذا قال له ؟

قال له : « إني على جناح السفر الى بلدة سالون فبلّغ ذلك لعقيلة لاماس »

ولم تشأ الأم أن تفيض أو تكثر من الأسئلة ، فان كل سؤال يحرك ظناً وكل ظن يبعث ريبة ، فسكتت ورفعت يدها من الطعام ، وانقلبت سحنتها فأصبحت كالنجم الساطع تغشّاه السحاب

ثم قطع جان ماري هذا السكوت فقال لأمه :

— هل لك في زيارة عمتي الآنسة ريزون اليوم ؟ لقد تصرّمت الأيام ولم تذهبي اليها ...

وسرت الأم لهذه الفكرة التي خطرت كالوحي ، فهي لم تذهب منذ زمن طويل لزيارة تلك العانس ... وسيهون ذلك عليها ملل الانتظار الى الغد ؛ وفي الغد تقابل صديقها في المناجم

* * *

واستلّ جان ماري المفتاح من موضعه فدسه في جيبه وانطلق معلناً أنه ذاهب الى المدرسة ؛ غير أنه ما كاد يبتعد عن الدار حتى تحول الى مكان الموعد في منزل أمه فصعد الى الطبقة العليا وأغلق عليه الباب ...

لقد كان هذا المنزل موحشاً كالقبر ، فهو مغلق النوافذ علاه الظلام وقد ركد فيه الهواء وتلخّن إذ مازجته رائحة الغبار المتراكم وقد تندّى بالرطوبة !

ارتعب الطفل وانخلع قلبه وأخذ يرتجف ... ولكن أيخاف وقد أشرف على نهاية تدبيره المحكم ؟ كلا ... إن ما يخشاه على نفسه لا يعد شيئاً في جنب ما يخشاه على أمه

ودخل إلى البهو فجلس في ركن منه وأخذ يتلهى بالتفكير في العجوز ميون تحت السقف الذي هو عليه ... كيف هي الآن ؟ إنها تمد عنقها الهزيل وترفع وجهها الدميم إلى السقف ، وترهف أذنيها لاستراق السمع ... ! ولكنه سوف يجعل من هذه الداهية ومن رضيعها لاماس أضحوكة أو أضحوكتين ...

وكان ينظر في ساعته بين الوقت والوقت على ضوء شعاع ضئيل ينفذ من صدع في نافذة ، فلما حانت الساعة الثالثة ، وهي ساعة الموعد بين أمه وصاحبها ، نهض واقفاً وأنشأ يسير في الغرفة ذهاباً وجيئة وهو يشد وطأته كالرجل ، ثم جعل يحرك الأثاث ويرجه رجا ليبلغ الصوت إلى مسمعي العجوز ... : لا شك أنها مستطارة من الفرح ، مطمئنة إلى ما تقوله للأستاذ لاماس إذ تقول له « إنهما هنا » ؛ ولاشك أنه سيثب في السلم كالمجنون ويفتح الباب بالمفتاح الذي اصطنعه ، ثم يقتحم البهو كالوحش الضاري ، وعند ذلك ... ؟ عند ذلك

يصعق إذ يرى چان مارى ! فيبتسم له هذا باشًا فى وجهه وينبئه فى سذاجة الطفولة أنه اعتاد المجىء إلى هذه الدار فى هذه الطبقة فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع ليلعب فى منزل أبيه ... وبعد ذلك ... ؟ وبعد ذلك لا يرتاب لاماس إذا أخبرته العجوز أنها تسمع خطوات فى الطبقة العليا ...

إن چان مارى لم يتعد السابعة من عمره ، ولكنه يعتقد فى نفسه القوة والحكمة والدهاء ...

وفتق له دهاؤه أن يتكلم بصوت مرتفع إذ ربما كانت العجوز تسمعهما يتكلمان أحيانًا ... وطفق يمشى ويتكلم حتى نال منه التعب فاستلقى على مقعد وسكت ... أما يسكتان هما أيضًا بعد الفراغ من حديثهما ... ؟

وكان المقعد الذى يجلس عليه فى ركن مظلم بحيث لا يراه لاماس عند دخوله ، فسيضطر مكرهًا إلى فتح النافذة لأطلاق الضوء ، وعند ذلك ... ؟ ولكن أوه ... إنه يسمع دبيب خطوات على السلم ... ! ها هى ذى تتوقف ! لا شك أن لاماس يتسمع خلف الباب ... ألا إنه قد جاء وقت العمل ... وعليه الآن أن يتكلم ويرفع صوته ... ولكن ما لصوته يتحشرج ! إن هو إلا صوت خافت ينبعث من ركن الغرفة المظلم كالهمس ...

وفتح الباب واستمر الهمس ... فأدرك لاماس « أنهما فى لذتهما ولم ينتبها إليه » وابتهج ابتهاج الوحش بالفريسة يراها غافلة عنه وهو يدب إليها ؛ وأخذته نشوة الانتقام ، فأفرغ رصاص مسدسه على مصدر الصوت ...

* * *

وقفت الأم أمام المرآة تُحكم وضع قبعتها قبل الذهاب إلى الآنسة ريون ، فقد أعجبها رأى چان مارى وستذهب لزيارتها ... أما غدا فان لم تتلق رسالة من دوبيناس فأنها سوف ... ولكن ما هذا الصوت ؟ ما هذه الجلبة ؟ ما هذا الصياح ؟

أزاحت الستارة عن نافذتها ... فما هذا ؟ رجل مخمور مقبوض عليه ، حوله نساء يبكين ويتصايحن ويلعنه بكل لعنة ويرمينه بكل مسبة ! ولكن هذا زوجها ! وما هذا الذى خلفه ؟ يا إلهى ... يا إلهى ...

واندفعت تهبط السلم فى غير وعى فرأت بالباب رجلاً من أهل المدينة يحمل على يديه جثة هامدة يسيل منها الدم ؛ وقد انثنى عنقها وتدلى رأسها فى مسكنة وذبول ... فصرخت ووقعت مغشيًا عليها ، وتمثل لها الراعى وقد رفع الحمل المقتول على يديه وهو يلعن صاحب السيارة والسيارة تبتعد ...

محمد الرافعى

كتاباته جديرة به

المؤمن
فى
المحارمات

(١) فرنسى إنجليزى وعربى (٢) فرنسى وعربى مع رسوم وصور للخطوط
تأليف الأستاذ محمود محمد سالم خريج التجارة العليا بليون
ورئيس القسم الأدبى بدار المحفوظات العمومية بالقاهرة
كتاب فصار درس عملى يوضح الى مرشده . الأول يأخذ
بيده الى طريق المقارنة ، والثانى يتغلب به على
عقبات الخطوط ، بكل منهما ٨٠ سؤالا عاديا : مفردات ،
محارمات ، رسائل ، عناوين يتدرب فيها على جميع الصيغ ،
ليس فى غنى عنه أحد فهما طالب أو راغب .

يباع بجميع المكاتب ثمنه ٦ قروش

وبالبريد ٦٨ مليما طوابع بريد لكل واحد منهما

الصمت

للكاتب الروسى ليونيد اندريف

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

القصة الروسية من أحق القصص بالعناية ، وذلك للطابع الذى انفردت به ، وللانسانية العالية التى تشتمل عليها ، ولأنها طبيعية صادقة ، ولتأثيرها العميق واستثارتها للعواطف ، واخيراً لما فيها من الدلالة على نفسية الشعب الروسى

وصاحبنا ليونيد اندريف من أقرب القصاصين الروس الكبار عهداً إلينا . وهو ينظر إلى الأشياء على نحو خاص به ، ويصورها بلمسات قوية من ريشته المتفحلة تظهر النور والظل بأكبر أحجامهما وأبلغ تباينهما

وفى كل قصة من قصصه فكرة مجردة يحوك حولها الأشخاص والحوادث ، وهو مع هوله يحفظ التوازن ويشعرك بأنه ليس فى الدنيا شر بحت ولا خير محض

وأندريف كمعظم معاصريه من القصاصين والكتاب نشأ من طبقة الشعب وعرف الضنك والجوع وابتلى بالكآبة والأسى . وقد تخرج فى القانون واشتغل أول أمره بالرسم ثم بالصحافة ، ولكنه لم يكد ينفر على الناس قصة « الصمت » حتى كانت له منها تباعة الذكر والشهرة الذائعة . وهى مثال رائع على طريقته فى كتابة القصة

— ١ —

فى ليلة من ليالى أيار مقمرة إضحيانة ، والبلابل فى القمراء تلمع شادية مشجية ، أقبلت أولجا ستيبانوفنا على زوجها الأب إجناتى وهو جالس الى مكتبه . وكانت أسارير وجهها ناطقة بأمض الحزن وأوجعه ، والسراج فى يدها مهتز مرتجف . فلما دانته لمست براحتها منكبه وقالت مختنقة الصوت مجهشة :

— أبتاه ، لنصعد الى ابننا ڤيروتشكا !

فتجهم الأب إجناتى وقطب حاجبيه من فوق عدسات دون أن يلتفت إليها . وظل شاخصا ببصره فى الفضاء طويلاً حتى أسقط فى يدها ، فقلبت كفها الأخرى تقليب المهموم الجزع ، وتهالكت على أريكة خفيفة هناك وقالت :

— ماأقساكما كليكما !

قالت ذلك بصوت وئيد مع التشديد أبلغ التشديد على « كليكما » . وقد تقلص وجهها المنتفخ المتحن بأمارات من الألم والعنت ، وكأنما أرادت أن تفسح بسماتها وأمارات محياها عن مبلغ ماتعانى من قسوة القوم : زوجها وابنتها

وأرسل الأب إجناتى ضحكة ونهض . ثم أطبق كتابه وخلع عدساته ودسها فى علبتها وأطال التفكير مكتئبا وقد استرسلت على صدره أجل استرسال لحية جثلة وخطها المشيب ، وكانت تعلو وتهبط فى هوادة مع أنفاسه المتلجة العميقة

وبعد هنيهة قال : « حسن . نذهب »

فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوت

متوجس متلهف : « وإنما رجائى اليك يا أبتاه ألا تمنعها . أنت تعرف طباعها »

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى اليها خشبى ضيق ؛ فكان ينيخ ويصر تحت أقدام الأب إجناتى وخطاه الثقيلة ، وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه أن ينحنى حتى لا تصطدم هامته بسقف السلم ، وكانت زوجته تتقدمه فى ثوبها الأبيض فلمس ردنها وجهه فانقبضت أساريره وعبس متململاً متبرماً . وولج الغرفة وهو على تمام اليقين بأنهما فى حديثهما مع فيرا ابنتهما لن يخرجا بطائل

وقالت فيرا : « يالله : هذان أنتما ؟ » ورفعت إلى عينيها ذراعاً عارية وبقيت ذراعها الأخرى على اللحاف الصينى الأبيض بحيث يتعذر التمييز بينهما لفرط بياض ذراعها وشفوف لونها وبرودة جسمها

فابتدرتها الأم بنـدائها : « فيروتشكا ! » وخنقتها العبرة فسكتت . وقال الأب إجناتى وهو يجاهد للتلطيف من جفاء صوته وخشونته :

— فيرا : خبرينا ماذا بك ؟

فظلت فيروتشكا صامتة

وعاود الأب إجناتى خطابه : « فيرا : أترين أمك وأنا غير أهل لمناجاتنا بأمرك والاستراحة الينا بذات صدرك ؟ ألسنا نحبك ؟ وهل لك من هم أقرب إليك وأمس بك منا ؟ بنى إلينا شجوك وصدقينى أنا الشيخ المجرب أنك واجدة بعدها بعض الراحة ، وكذلك نحن . انظرى إلى أمك المجوز وكيف عذابها . . . فيروتشكا . . . ! وأنا — وهنا تهدج صوته كأنما انشعب شىء فيه شطرين — وأنا ، أيهون علىّ ، تحسبينه يهون ؟ كأنى لست أبصرك تهب لوعة ! . . ولكن ماهى ؟ وأنا ، أبوك ، على جهل بها ، أيصح هذا ؟

ولكن فيروتشكا ما برحت صامتة . وحيالها الأب إجناتى يوالى مسح لحيته فى تحفظ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالنتف أصابعه المضطربة من حيث لا يشعر . ومضى فى حديثه يقول :

— خالفت مشيئتى وذهبت الى بتروغراد — فهل لمنتك على مخالفتك ؟ أكنت يوماً عليك بالمال ضنيناً ؟ أتقولين انى لم أك براً بك حدباً عليك ؟ إذن ، لم لا تتكلمين ؟ انظرى ، أى خير أصبتِ من بتروغراد !

وانقطع الأب إجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل كالعيان لخاطره بناءٌ من الجرانيت هائل رهيب ، حافل بأخطار راصدة كامنة ، مكتظ بخلق غريبة أطوارهم ، جاسية مشاعرهم . وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ، وهنا كان تلفها وضياعها ، فجاشت فى نفس الأب إجناتى نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة ، تشوبها النقمة على ابنته ، وهى ما فتئت صامتة ، صامتة فى تشبث وعناد

أما فيروتشكا فأجابته بجفاء وهى مطبقة جفنيها :

— لا دخل ألبتة لبتروغراد فيما أنا فيه . على أنه لا شىء بى ، والأولى أن تذهبا للنوم ، فالساعة متأخرة

فأنّت الأم : فيروتشكا : إطمئنى إلى بصيرتك يا بنيتى !

فقاطعتها فيروتشكا نافدة الصبر : كفى ياأمى !

وجلس الأب إجناتى على مقعد وجعل يضحك ، ثم قال منهكا : « حسن والله ! ليس فى الأمر شىء بعد هذا كله ؟

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة ؛ وقد أقامت صعدتها واستوفزت فى فراشها :

— أبت ! أنت تعلم حبى لك ولأمى ، ولكنى إنما أشعر بخمود شديد ، وسيزول هذا كله . .

والحق أنه أولى لكما الذهاب للنوم ، وإنى لراغبة فيه أيضاً . غداً أو فى حين آخر ، سيكون لنا متسع للحديث

فهب الأب إجناتى دفعة حتى ارتج مقعده وصدم الحائط وراءه ، وأخذ بذراع زوجته قائلاً : « لنذهب »

فأنّت هذه : « فيروتشكا . . . ! »

فصاح بها الأب إجناتى : قلت لك فلنذهب . وإذا كانت قد نسيت الله ، فهل ننساه مثلها ! ولماذا !

واجتذبها للخروج فى شىء من العنوة والقسر . وكانت وهما يهبطان السلم تجر أقدامها جراً يزداد تثاقلاً وتراخيا . وغمغمت فى همسة مغضبة : أف منك ! أنت أيها القس الذى جعلتها كذلك ، وعنك دون سواك أخذت هذا الطبع . وإنك لمسئول عنه . آه يا ربى ، ما أتعسنى !

وجعلت تولول وا كفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم تعد تتبين مواقع خطاها ، بل كانت تاركة قدمها تهبط الدرج كأنما تنساقط إلى هاوية ترغب فى التردى فيها

ومن ذلك الحين صحت عزيمة الأب إجناتى ألا يكلم ابنته . وكأنما لم تفطن الابنة الى هذا التغير منه ، وظلت كمهدها تضطجع آونة فى غرفتها وآونة تعمد الى الخروج . وكانت كثيرا ما تمسح بالراحتين عينيها كأن عليهما غشاوة . ولكن صمت الأب وابنته كان يثقل على الأم ويكربها ، فباتت وهى بالأمس الموامة بالمزاح والضحك أبعد أهل الأرض عنهما ، فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل

قلنا إن فيروتشكا تخرج أحيانا للتمشى والتنزه فحدث بعد أسبوع من المقابلة الآنفة الذكر أن خرجت خروجها المعتاد كل مساء . وشاء القدر ألا يراها أبواها من بعد حية بينهما رائحة أو غادية ، فانها فى ذلك المساء ألقت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين

* * *

وقام الأب إجناتى نفسه بدفنها ، ولم تشهد زوجته حفلة الصلاة عليها فى الكنيسة ، لأن نعى فيروتشكا كان صدمة لها أصابتها بالفالج . ففقدت كل حراك لقدميها وذراعيها ولسانها . فبقيت طريحة فى غرفة محجوبة الضوء ، وعلى مقربة منها تدق الأجراس فى القباب معولة نادبة ، وإنها لتسمع موكب الجناز خارجا من الكنيسة وتسمع المرتلين ينشدون فى مرورهم أمام المنزل ؛ ولقد همت لترفع يدها وترسم إشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وأرادت أن تقول : « الوداع يافيروتشكا » ولكن لسانها لصب فى فمها هامداً مورّما ثقيلاً . وهكذا كانت طريحة بلا حراك حتى ليحسبها الرائى هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان

وشهد صلاة الجناز فى الكنيسة جمع حافل من معارف الأب إجناتى والغرباء عنه . وكلهم مترحم على فيروتشكا متوجع لمصرعها ، وهم فى نفس الوقت يتتبعون حركات الأب إجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بها على حزن عميق وجوى لاعج . إذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما فى خلقه من عنجهية ومجرفة ، ولشدته وصرامته مع التائبين المنيبين على يديه ، فضلا عن أنه حسود جشع لا تفوته فرصة يتقاضى فيها هذا أو ذاك من أهل دائرته أكثر من حقه . فالكل هنا يودون التشفى برؤيته متألما كسيرا ، ويودون أن يروا إقراره على نفسه بأن مصرع الفتاة يركبه منه إثم مضاعف ، باعتباره أبا فظا غليظ الطبع ، وبصفته قساً ظهر عجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة . ولذلك أمعنوا فى ملاحظته والتطلع اليه ،

ولكنه وقد آنس أن أنظارهم الى كاهله العريض الضليع يلتمسون احتماءه تحت وقر الفادحة — لم يأل جهدا فى نصب قامته وإقامة صعدته . فكان فى تلك الساعة أقل تفكيرا فى الابنة الفقيدة منه فى صيانة كرامته

فألمع كرزنوف : « قس صعدت على القمز قنانه وصاب على العجم عوده » وكرزنوف هذا تجار يدين القس بثمن بعض الأطر . ولقد شفع ملاحظته بنفضة بالرأس الى جهته

وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة الشطاط سار الأب إجناتى إلى المدفن ، وعلى هذه الحال نفسها عاد منه ، حتى إذا كان عند باب غرفة زوجته انحنى كاهله قليلاً ، ولعل هذا راجع إلى أن ارتفاع الباب دون قامته . ولما كان قادماً من وضح النور لم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها ، فلما أن تبينه وجدها هادئة ، وأنه لا دمع فى عينيها ؛ وليس بهما نقمة ولا حزن . فهما خرساوان صامتتان صمت ألم وعناد ، وكذلك جسمها البدين المتراخى المرتكن إلى حاجز الفراش

فسألها : والآن ، ماذا ؟ كيف حالك ؟

ولكن شفتيها خرساوان وعينيها صامتتان . فوضع الأب إجناتى راحته على جبينها ؛ فاذا هو خصر رطب ، ولم يبد من أولجا ستيبانفنا أدنى دلالة على أنها أحست لمسته . فلما أن رفع راحتيه عن جبينها كانت عينان غائرتان سوداوان تشخصان اليه دون أن يطرف لهما هدب ، وتكاد تكون الحدقة منهما كلها فاحمة بسبب تمدد انسانيهما ، ولم يكن فيهما حزن ولا نقمة

فغمغم الأب إجناتى ، وقد بردت أطرافه وارتعدت فرائصه : « حسن ، أنا ذاهب الى غرفتى »

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شىء كعهده نظيف مرتب والمقاعد الكبيرة مسربلة فى أغطيتها البيضاء كأنها الموتى فى أكفانها . وفى إحدى النوافذ قفص معلق ولكنه خاو وبابه مفتوح . وحين ذاك نادى الأب إجناتى : « نستاسيا ! » فبدا له أن صوته أجشّ ، وأحس أنه يسىء صنعا بعيد جنازة ابنته أن يرفع الصوت الى هذا الحد فى تلك الحجرات الهادئة ، فعاود النداء بصوت أكثر تلطفا وخفوتاً : « نستاسيا ! أين الكنارى ؟ »

فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة النحيب منتفخ وارم ولونه قانٍ كالجزر

وأجابت بجفاء : — لا أدرى . لقد طار

فقطّب الأب إجناتى حاجبيه مغضباً ، وصاح بها : « وكيف تركته يطير ؟ »

فأجهشت تبكى وتمسح دموعها بذوائب المنديل المعصوب به رأسها . وقالت :

— إنه الروح الجميلة العزيزة لسيدتى الصغيرة الراحلة ، فكيف لى بحبسه ؟

وخيل الى الأب إجناتى نفسه أن الكنارى الصغير الفاقع اللون السعيد الذى كان دأبه التغريد شامخاً برأسه قد كان حقيقة روح فيروتشكا ، وأنه لو لم يطر الكنارى لما صح القول بموت فيروتشكا ، فاشتدت على الطاهية نقمته وصرخ بها :

— اغربى عن وجهى !

ولما لم تبادر توا الى الباب زاد قائلاً : « مجنونة ! »

— ٢ —

ومنذ يوم الجنازة والصمت مخيم على البيت . وليس المراد بالصمت هنا السكون ، فان السكون إنما هو عدم الجلبة . وأما هنا فالصمت معناه أن الذين التزموا الصمت لا جرم فى مقدورهم الكلام إذا شاءوا . وهذا ما يقع فى نفس الأب إجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقى نظرتها

الشاخصة ثقيلة حتى لكأنما استحال هواء الغرفة رصاصاً يرهق رأسه وينقض ظهره . وهذا ما يقع فى نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذى انطبع عليه صوتها ، وحين يتأمل كتبها وصورتها — وهى صورة مرسومة بالألوان جاءت بها معها من بتروغراد . ولقد نحا فى نظره الى صورتها نحواً خاصاً .

فهو يتطلع أول الأمر الى جيدها حيث مسقط الضوء فى الصورة فيخيل إليه أن عليه خدشاً كالذى كان على جيد ڤيروتشكا الميتة ، وإنه لفى حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وفى كل مرة يعمل الفكر للاهتداء الى سببه وعلته . فلو أن القطار هو الذى صدمها فى هذا الموضع لهشم رأسها بأكمله ، ورأس ڤيرا الميتة سليم كل السلامة .

أترى بعضهم داس عليها بقدمه وهم يحملون الجثة الى المنزل ، أم أنه أثر ظفر خدشها من غير قصد ؟

ولكن إطالة التفكير فى تفصيل مصرعها كان يشق على الأب إجناتى ويروّعه ، فيتحول عندها الى تأمل عينيها فى الصورة ، وهما سوداوان تجللاوان أهدابهما الوطفاء تلقى تحتهما ظلاً ورياً فيزداد بياض المقلتين نصوعاً وتبدو عيناها كأنما يحوطهما إطاران كالأطر السود المجالة بالحداد . وقد جعل لهما الرسام المجهول — وهو لا شك من الفنانين الموهوبين — معنىً غريباً يخيل الى الرائى أن بين هاتين العينين وبين ما تقعان عليه غشاء رقيقاً شفيفاً فهى تذكرنا بغطاء معزف البيانو اللامع السوداتعلوه من غبار الصيف غشاوة خفيفة لا تكاد تبين ، وهى على خفائها تكمد من لألاء الخشب المجلو . وكان الأب إجناتى حيثما وضع الصورة تتابعه عيناها غير ناطقتين بل هما أبداً صامتتان . وبان الصمت فى المنزل حتى ليخيل أن فى الامكان سماعه . واستمرت الحال على هذا المنوال فوقر فى نفس الأب اجناتى أنه يسمع الصمت .

وكان الأب اجناتى فى كل صباح بعد القربان المقدس يقصد الى قاعة الجلوس فيأخذ بصره فى لمحة واحدة قفص الكنارى الخاوى وسائر الأثاث فى ترتيبه المعهود . فيجلس فى أحد المقاعد الكبيرة ويطبق جفنيه ويستمع الى صمت المنزل . وكان أمراً عجباً . فالقفص صامت فى وداعة ولطف . والأمى والدموع والضحك الظاعن الفقيد جميعاً يأنسها الرجل فى هذا الصمت . وكان صمت الزوجة مع قيام الجدران دونه لا يزال عنيداً ثقيلا عليه كالرصاص — ومرعباً ، مرعباً حتى ليأخذه برد المقرور فى أشد الأيام حرارة قيظ . أما الابنة فكان صمتها لا آخر له ، بارداً كالقبر ، غامضاً كالموت . ثم كان الصمت كأنما يشقى بنفسه ، وكأنما يتهافت على التحول الى نطق ، لولا أن شيئا له قوة الآلة وجمودها يمسكه عن الحراك ويمده كامتداد السلك . وإذا السلك من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد يهتز ويصدر عنه صوت ناعم خافت حنون فتحفز الأب اجناتى الرغبة تشوبها الرهبة على تسقط بادرة هذا الصوت فيشد بكفيه على جانبى المقعد ويمد رأسه متسمعاً مترقباً بلوغ الصوت اليه ، ولكن الصوت ينقطع وينطوى فى غمرة الصمت

وهنا يهتف الأب اجناتى وقد ركبه الغضب : « عبث باطل وأضغاث أحلام » . ويهب من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كمهده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة فى ضحّ الشمس . والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الأطراف ممردة . وفى الناحية الأخرى

سور حجرى ممدود لا نوافذ له لأحد مخازن البضاعة . وكانت فى الركن مركبة وافقة كأنها نُصُبٌ من الطين قائم ، وكان غير مفهوم سبب وقوفها هناك دواماً مع أن الساعات الطويلة تنقضى ولا يظهر عابر واحد فى هذه الطريق .

كان على الأب اجناتى خارج البيت أن يتحدث الى الكثيرين : مع مرءوسيه من رجال الدين ، ومع السكان فى دائرته الكنسية أثناء قيامه بفرائضه ، وأحياناً مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثور ومستحب . ولكنه حين يؤوب وتحتويه غرفته كان يخيل إليه أنه قضى سحابة نهاره صامتاً . وذاك لأنه ما كان ليتحدث الى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أم المسائل وأهمها والتى تهيج كل ليلة بلابله وتلمح خاطره : فيم ميتة ڤيروتشكا ؟ ؟

وقد أبى الأب اجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ولم يزل على اعتقاده بامكان كشفها وجلاء غامضها .

فكان يحيى لياليه مسهداً تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل الى فراش ڤيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق اليها الرجاء أن « تكلمى ! » . فاذا بلغت به الذكرى الى هذه الكلمة تمثلت له بقية المشهد على خلاف ما وقع . ولقد حفظت عيناه المغمضتان فى ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تتمثلان فى جلاء ڤيروتشكا تستوفز فى فراشها وتقول مبتسمة ...

ولكن ماذا قالت ؟

إن تلك الكلمة التى لم تلفظها ، والتى بها جلاء المعضلة كلها ، تلك الكلمة تتخيل له قريبة ، جد دانية . فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان قلبه ، إذن — إذن لسمعها على أنها كانت فى الوقت نفسه نازحة نائية بلا حد ولا أمل .

واذ ذاك يهب الأب اجناتى من فراشه ، ويبسط يديه مضمومتين معا فى توسل وضراعة مناديا : « ڤيروتشكا ! » .

ولا من مجيب الا الصمت .

وفى ذات مساء قصد الأب إجناتى إلى غرفة أولجا استباقنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أسبوع وجلس عند فراشها وهو مشيح بوجهه عن ناظريها الشاخصين الفاجعين ، وقال :

— أيتها الأم ! أريد التحدث معك عن ڤيروتشكا . أتسمعين ؟

ولكن ناظريها صامتان . فرفع الأب إجناتى عقيرته ، واشتد — مثل شدته مع المعترفين — فى خطابها :

— أعرف أنك تعدينى المتسبب فى مصرع ڤيروتشكا . ولكن ، مهلاً ! أكنت أقل منك حباً لها ؟ إنك لغريبة الرأى — لقد كنت متشدداً ، فهل حال ذلك بينها وبين ما شاءت ؟ لقد تغاضيت عما لى عليها وأنا أبوها من حق الاعتبار ، فطأطأت صاغراً حين ارتحلت — غير حافلة باستنزال لعنتى — إلى هناك ، وأنت — أيتها الأم — ألم تضرعى إليها باكية تناشدينها البقاء ، حتى أمرتك أن تكفى ؟ أمسئول أنا عن أنها ولدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها ما ينبغى علمه عن الله والطاعة والحب ؟

وألقى الأب إجناتى لمحة على ناظرى زوجته الشاخصين ثم أشاح مستأنفاً :

— ماذا كنت صانعاً معها وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها . أكنت آمرها ؟ لقد أمرتها . أكنت أستعطفها ؟ لقد استعطفتها . ماذا ؟ أترين أنه كان على أن أخر على قدمى الصبية الخروب راكعاً وأنتحب كالمرأة المجوز ؟ ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها

ما أصابها، لست أدرى . يا لها ابنة عاقة لا قلب لها !

ودق الأب إجناتى على ركبتيه بجمع يديه

— لقد تجرّدت من الحب — هو ذاك . وأنا على علم بما كانت تصفى به : مستبد غشوم . وأنت كانت تحبك ، أليس كذلك ؟ أنت التى بكيت ، و ... تدللت ؟

وضحك الأب إجناتى ضحكة خافتة

— تحبك ! بلى والله ، وترويحاً عنك لقد اختارت هذه الميتة ميتة شنيعة شائنة ! فماتت على القَضَض والحصى المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت على الأقدار — كالكلب جدلته رفسة بالنعل على خطمه

وغمغم الأب إجناتى بصوت هامس أبح :

— ما أشد خزيى ! إنه ليتولانى الخزى إذا خرجت الى الطريق ! ليتولانى إذا خرجت من المحراب ، يتولانى أمام الله ! يالك ابنة قاسية خسيسة ! إنك لتستحقين اللعنة فى قبرك

وألقى الأب إجناتى على زوجته نظرة ثانية ، فاذا هى مغشى عليها ، ولم تفق من غشيتها إلا بعد ساعات . ولما أفاقت كانت عيناها صامتتين ليس فيهما ما يدل على أنها فقهت مقال الأب إجناتى لها أو لم تفقه منه شيئاً

وفى تلك الليلة ، وكانت من ليالى تموز مقمرة ساجية دافئة يخيم السكون عليها ، قام الأب إجناتى يدب على أطراف قدميه حتى لا تسمعه الزوجة ولا ممرضتها ، وصعد السلم إلى غرفة فيرو تشكا . وكانت نافذتها من عهد وفاة ابنته لم تفتح فكان فى جوها حرارة وجفاف تشوبهما رائحة احتراق خفيفة من حديد السقف المستهدف طوال النهار لوقدة الشمس . وكان إحساس الوحشة والأقواء مخيما على الغرفة التى طالت غيبة الانسان عنها ، وقد انبعثت من الألواح المكتسية بها الجدران ومن الأثاث وسائر ما بالغرفة ريح كريح العطن والانحلال

وكانت القمراء تتخلل زجاج النافذة وتنبسط على أرض الغرفة كشريط وضاء ، وكانت المناضد بطلائها الأبيض الناصع تعكسها فينير أركان الغرفة منها نور كليل شمشعانى . ويبدو الفراش الأبيض النظيف وعليه وسادتان كبرى وصغرى كأنه شبح من عالم الأطياف . وفتح الأب إجناتى النافذة فاندفع الى داخل الغرفة تيار من الهواء النقى ، يستروح السائف فى أردانه تراب النهر المجاور وعبق الزيزفونة المزهرة ، ويحمل الى المتسمع المصغى نشيداً خفيضاً لعله لقوم فى قارب على النهر يجدفون ، وفى تجذيفهم ينشدون

وخطا الأب إجناتى عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث صوتاً ، ودنا من الفراش الخاوى وخرّ مكباً على وجهه فوق الوسائد يضمها — حيث لا محالة كانت تضع فيرو تشكا وجهها

وظل على هذه الحال طويلا . وتعالى النشيد فى الخارج ، ثم أخذ ينخفض حتى لم يعد مسموعا ، والأب إجناتى لا يزال فى مكانه ، وشعره المرسل مشعث مهدل على كتفيه وعلى الفراش

ودلف القمر فى مسراه ، فأظلمت الغرفة واحلولكت ، ورفع الأب إجناتى رأسه ونادى بصوت أفرغ فيه كل حبه الذى أطل كبته وكظمه بلا بث ولا تصريح . وكان وهو ينادى ينصت لما يقول ، وكأن المنصت ليس هو وإنما هى فيرا

— فيرا ، يا ابنتى ! أتدركين معنى ابنتى ؟ يا بنيّتى ! مهجتى ! دمى ! حياتى !

هذا أبوك ، أبوك الشيخ المسكين وقد علاه الشيب وخذلته القوى

وانتفض منكباه وسرت الرجفة فى جثمانه

الضليع من فرعه إلى أخمصه . ثم همس متهدجا فى لين وترفق كأنما يناغى طفلة :

— أبوك الشيخ المسكين يسائلك . نعم يا ڤيرا إنه يستعطفك ، إنه ليبكى ، ولم يكن من شأنه البكاء قط ، إن ألمك يابنيتى ولوعتك ، يحزان فى نفسى كما لو كانا بى . بل أشد وأنكى

وهز الأب إجناتى رأسه :

— أشد وأنكى ، ياڤيرا . وما الموت عندى ، أنا الشيخ ؟ ولكن أنت . .

آه لو علمت ما كان من رقتك ، ولطافة بنيتك ومبلغ إشفاقك وتهيبك !

أتذكرين إذ وخزت أصبعك ونضح منها الدم فطفقت تصرخين . نعم يا بنيتى !

وكنت تحبيننى حقاً ، وتشفقين بى حبا ، أعلم ذلك . وكنت فى كل صباح تقبلين يدى . تكلمى عن هذا الذى يحزنك — فأنى بهاتين اليدين خانق حزنك . إنهما ما برحتا قويتين ، هاتين اليدين ، يا ڤيرا

واهتزت خصائل شعره

— تكلمى !

وشخص بعينيه إلى الحائط ، وبسط يديه ، وصاح :

— تكلمى !

ولكن الغرفة صامتة . ثم طرقتها على بعد سحيق أصداء مديدة ومقتضبة من صفير قاطرة عابرة

فأدار الأب إجناتى عينين اتسع حملاقهما كأن قد تمثل له شبح الجثة مبتورة الاشلاء . ثم نهض من ركوعه على مهل متساندا ، ورفع إلى رأسه بحركة المذهول يداً مشنجة منفرجة الأشاجع ممدودة الأصابع . ومضى الأب إجناتى إلى الباب ، وفى خروجه همس فى حدة :

— تكلمى !

فكان جوابه الصمت

فى اليوم التالى تناول الأب إجناتى غداءه على انفراد مبكراً ، ثم أخذ سمته إلى المدفن لأول مرة بعد وفاة ابنته . وكان المدفن موصداً مهجوراً لا تحس فيه نأمة ، حتى لكأن النهار القائظ فى هدوئه ليلة مشمسة . على أن الأب إجناتى كدأبه نصب قامته مجاهداً ، وأدار بصره من جانب لآخر بجفوة وصرامة ، وهو يزعم أنه كمهده بنفسه . ولم يفطن إلى التخاذل الطارىء الفظيع يفت فى ساقيه وإلى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شيباً كأنما أصابها صقيع هتون . وكانت الطريق الى المدفن طويلة مستقيمة آخذة فى ارتفاع لطيف المرتقى ، وفى نهايتها باب المدفن من خشب الزيزفون يظلله سقف أبيض ملتمع ، فكأنه فم مغفور الشدقين على الدوام محلولك وعلى حافته أنياب قواطع لوامع

وكان قبر ڤيرا موغلاً فى جوف المدفن بعد نهاية الممرات المفروشة بالحصباء . فكان على الأب إجناتى أن يجوس طويلا فى مسالك ضيقة على محاذاة الكثبان المتمرجة الناتئة بين حشائش مهملة مهجورة من الجميع منسية . وكان يلتقى هنا وهناك بنصب متداعية ، لونها حائل مخضر من القدم ، وحواجز منهارة متهدمة ، وصفائح من الحجارة ثقال ضخام ملقاة تهبط صدر الثرى كأن بها عليه حقداً

كمد الشيخ باسرا متجهما

وعلى مقربة من إحدى هذه الصفائح ، كان قبر ڤيرا . وكان المدر المشوشب عليه مصفراً ذابلا على حداثة عهده فى حين كل ما حوله يانع ناضر . وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، وخميلة ممتدة من شجيرات البندق وارفة الظلال تبسط أفنانها المتأودة بأوراقها المخشوشنة الوبراء على القبر

فجلس الأب إجناتى على ضريح تجاه ضريح ابنته وهو يتنهد بين الفينة والأخرى . وجعل يتلفت حواليه ، وألقى نظرة على صحراء السماء الصافية ، وكان قرص الشمس المتقد معلقاً فى مكانه جامداً بغير حراك . وعندها فقط أحست فى نفسه عمق ذلك السكون الذى لا سكون مثله يخيم على مدفن ، والريح هامدة لا تهفو لها نسمة تعبث بالأوراق الجافة الميتة . وقام فى خاطر الأب اجناتى مرة أخرى أن هذا ليس بالسكون ولكنه الصمت ، وفاض الصمت وطم حتى بلغ أسوار المدفن نفسها وتسورها متثاقلاً وعمر المدينة . وأما آخره فهنالك فى هاتين العينين السوداوين الشاخصتين المصرتين فى تعنت وعناد على الصمت

هز الأب اجناتى كتفيه ، وقد سرت البرودة فيهما . وسرح نظره على قبر فيرا . وطال تأمله لهيدان الحشائش القصيرة المصوحة وقد صار انتزاعها من منابتها فى بعض الرياض الفيحاء الضاحية فلم يتهيأ لها تأصل ولا ترعرع فى هذه التربة الجديدة . ولقد عز على الأب اجناتى إقناع نفسه بأن هنا تحت هذه الحشائش على بعد بضعة أشبار منه ترقد فيرا ، وبدا له أن تدانى الشقة الى هذا الحد أمر غير معقول ، وإنه ليخامر نفسه منه حيرة وتوجس غريب . اذ كيف أن هذه التى تعود التفكير فيها على أنها طويت فى ظلام الأبدية السحيقة طى الأبد تكون هنا قريبة ! وكيف يعقل مع هذا أنها تلاشت من الوجود ولن تعود !

وخيل إلى الأب إجناتى أنه لو نبس بكلمة ، بالكلمة التى يكاد يحسها على شفتيه ، أو أنه لو أومأ باشارته ، لأقبلت عليه من القبر ، ووقفت أمامه ممشوقة القد جميلة كعهده بها ، ثم إنها لا تقوم وحدها ، بل إن الموتى أجمعين الذين نحس بهم ونراع من رهبة صمتهم وبرده ، كل هؤلاء أيضاً يقومون

وخلع الأب إجناتى قبعته السوداء المريضة الحاشية ، ومسح بيده على ذوائبه الشعثة ، وهمس منادياً :

— فيرا !

وأخذه القلق أن يكون يسمع منه غريب . فاعتلى الضريح وتطلع من فوق الصلبان . فلم يكن على القرب أحد ، فأعاد النداء رافعاً صوته :

— فيرا !

وكان صوته صوت الأب إجناتى المعهود من قديم جافاً آمراً ، وكان محبباً أن نداء بهذه القوة يبقى بغير جواب !

— فيرا !

ومضى الصوت ينادى عالياً ملحاً ، ولما أن سكت لحظة ، خيل اليه أن جواباً غامضاً دوى من تحت أطباق الثرى . فتلفت الأب إجناتى حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسل لثته عن أذنيه وألصقهما بين المدر الخشوشن الشائك فوق القبر ، ونادى :

— فيرا ! تكلمى !

فأحس الأب إجناتى فى فزع ان شيئاً له برودة القبر قد نفذ الى أذنه وجمد له عقله ، وأن فيرا تكلمت — ولكن كلامها هو ذلك الصمت الطويل نفسه ، وظل يزداد الصمت روعة وهولاً . ولما أن رفع الأب إجناتى رأسه من الأرض مجاهداً ، ووجهه شاحب كوجه الميت ، خيل اليه أن الهواء يهتز وينبض بصمت مرنان ، كأن ريحاً صرصراً ثارت على ذلك العيلم المخوف ، وأن الصمت ليزهق أنفاسه ويخنقه ، ولا تزال موجاته الثلجية متقلبة فى رأسه جيئة وذهابا فيقف لها شعره

أشعث مستطاراً ، ولا تزال منكسرة على صدره فيئن ويتأوه من وقع صدماتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص يقلب ألحاظاً عصبية خاطفة من ناحية أخرى ، ثم قام متحاملاً فى اتئاد وبطء ، وعانى أشد الجهد وأنكاه ليرفع قامته ويرد الى بدنه المرتجف مشية الكبرياء المعهودة ، وقد أفلح بعد لأى ، وأخذ ينفض التراب عن ركبتيه متمهلاً متروياً ، ولبس القبعة ، ورسم اشارة الصليب ثلاثا على القبر ، ثم داف بخطوات متساوية ثابتة ، غير أن طرق المدفن ومعالمه اختلطت عليه فضل السبيل

فوقف عند مفترق السالك جامدا فى مكانه يضحك :

— ضللتُ السبيل !

وطالت وقفته برهة ثم عرّج من غير تفكير الى اليسار . وذلك أنه ما كان ليطيق الوقوف هنا جامدا ينتظر . ونبعه الصمت على الأثر . وهذا هو الصمت يخرج من اللحود المشوشبة ، وتتنفس عنه الصلبان الداكنة المتجهمة ، ويتصاعد نفحات دقيقة خانقة من مسام الأرض المتشعبة جثثا ورماما والأب إجنانى يضاعف خطاه مسرعاً ، وقد سدر بصره وذهل عن نفسه ، فهو يطوف بالمسالك بعينها المرة بعد الأخرى ، واثبا فوق القبور ، متعثراً بالحواجز ، يهوى بكفه على الأكاليل من الصفيح شائكة فيتمزق قماشها الرقيق الناعم فى يديه . ولقد ذهل عن كل تفكير الا فكرة واحدة وهى الخروج من هذا المكان . فاندفع من ناحية الى أخرى ، وأخيراً انطلق يعدو فى سكون ، شبحا مديد القامة لا تكاد تتمرفه فى برنسه الخافق وراءه ، وشعره المتهدل المرسل فى الهواء

وان رؤية ميت قائم من القبر لأخف هولاً من ملاقاة هذا الرجل طالعاً عليك بمنظره الأشعث الآبد ، راكضا ، واثبا ، ملوحا بذراعيه — حين تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها ، وتسمع حشرجة أنفاسه تتدافع بصوت أجش من فمه المفغور

وانتهى الأب اجنانى وهو فى أقصى سرعته الى الرحبة الصغيرة التى تقوم فى آخرها كنيسة المدفن متطامنة مجصصة . وكان على مقعد طويل عند مدخلها شيخ مهوم بلوح كالحاج من بعيد ، والى مقربة منه امرأتان عجوزان من المتسولات فى شجار وصياح تتشاحنان وتتباهلان

ولما بلغ الأب اجنانى منزله ، كان الليل قد دجا والمصباح قد أسرج فى غرفة أولجا استبانفنا ، فأقبل عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته المزفتة المترية وترامى على أقدام زوجته راكعا وانتحب :

— أيتها الأم — أولجا — رحماك رق لحالى أكاد أفقد صوابى

وصدم بحافة المائدة رأسه وانتحب نحيباً صاخبا وجيما ، شأن الكظيم ينتحب لأول مرة ؛ ثم رفع رأسه على يقين من أنه بعد قليل تظهر المعجزة فتتكلم زوجته وترق لحاله

— يا زوجتى العزيزة

وتهافت بكل جسمه الضخم ضارعا اليها مستعطفا اياها . فالتقى بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين . ولم يكن فيهما رحمة ولا نقمة . ربما تكون زوجته قد صفحت عنه ورقت لحاله ، ولكن عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة . انهما على حالها خرساوان صامتتان

* * *

والبيت كله فى وحشة صامت

عبد الرحمن صدقى

الحظ المشؤوم

للكاتب الايطالي جرازيا دليدا

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

ضاقت سبل الحياة بالفتى إيليا كراى فهو لا يجد عملاً ، وهو لا يدرى كيف يزجى هذا الفراغ المريض الذى وقع فيه على حين فجأة ، إلا أن يقضى شطراً من نهاره فى حجرة الانتظار بالمحكمة ، واضعاً كراسة على ركبته يثبت فيها ما توافيه به قريحته من أشعار يناجى بها زوجته الحبيبة . لقد كان الضجيج يعلو بازائه والجوع تتقاطر من هنا ومن هناك : فقيرات النساء يتخاصمن على دريهمات ضئيلة كأنما يتنازعن أقطار الأرض جميعاً ؛ وقائلو الزور يسيرون فى هدوء وأناة يبتغون شيئاً ؛ وصغار المحامين يتدفعون هنا وهنا يفتشون عن صيد جديد ؛ هذا وإيليا جالس فى هدوئه ، فى زاوية الحجرة ، يكتب إلى زوجته بعض الشعر وكأنه لا يحس مما حوله شيئاً :

« أنا أستطيع أن أرى الحياة بعينى عقلى ، فكل ما يدور فى العالم مقدر قبل أن يكون . أنا شاعر وفيلسوف ، فليس شىء فى الحياة يثير فىّ الدهشة لأننى أعلم أن الأيام تعلو بالمرء مرة وتسفل به أخرى . لا تقنطى — يا عزيزتى — فلربما تذكرنا عمى أغسطينو ... أغسطينو الذى طرد زوجته وحرمها ماله ؛ لعله يذكرنا يوماً فنذهب إلى شاطىء البحر معاً ، نشهد القوارب تضطرب بين الأمواج الهائجة ، ونحن نسير ذراعاً فى ذراع كأننا عروسان فى شهر العسل . على أننا — الآن — سعيدان ، فالحب والاطمئنان يغمران قلبينا وحياتنا . وأنتِ يا سيدار ؛ أنتِ فينوس هرموزا ؛ أنتِ ثروتى وأنتِ ملكتى ... »

* * *

وفى صباح يوم من أيام الشتاء ، أحس إيليا وهو فى مكانه من حجرة الانتظار ، حيث يجلس دائماً ؛ أحس أن يداً قوية تجذبه فى عنف ، وسمع صوتاً خشناً ينادبه : « أسرع : لقد كنت فى (نيرانوفا) وعمك هناك يعالج مريضاً مخطراً ... » هذا صوت سائق يتهيأ إلى أمر ، ولكنه ما كان ليسلبه بعض هدوئه . لقد أرسل أنة خفيفة خافتة ، ثم قال يحدث نفسه : « سأنشر هذا الخبر المحزن على عينى زوجتى »

لم تضطرب الزوجة لما سمعت ، ولم تحزن ، ولم تفزع من مكانها وهى جالسة أمام باب الدار تلتمس الدفء من أشعة الشمس ، وقد ارتدت خير ملابسها ، وانتعلت ، ورتبت شعرها فى دقة وأناقة ؛ غير أن ملابسها وحذاءها وقد عبثت بها يد البلى ، ووجهها وقد شحب وتغضن وذوى جماله ، وعينيها وهما تضطربان وقد خبا ضوءهما وانطفأ بريقهما ؛ كانت كلها ترسم سطوراً واضحة فى تاريخ فاقتهما وعوزها

ومن أقصى المكان ارتفعت ضجة تشبه ما يسمعه إيليا دائماً فى المحكمة : فهؤلاء أصحاب الدار يتنازعون فيما بينهم أمراً ؛ وهذا الندىّ — وهو جزء من الدار — قد ضم جماعة يلعبون الورق ويمزحون فى ضجة وصخب ؛ والزوجة لا يعنيها

ملحوظة : كتبت هذه القصة بقلم الكاتبة الايطالية جرازيا دليدا ، وقد أخطأ الخطاط فجعلها الكاتب

ما يدور حولها . أما هو — هو إيليا — الزوج العاشق فقد وقف بإزاء زوجته يداعب شعرها فى رفق وتحبب ويقول : « أفتعلمين ما أنا صانع ؟ سأذهب ...! » قالت الزوجة : « إلى أين ...؟ » قال : « إلى أين ؟ لعلك لم تعى شيئاً مما قلتُ : إلى عمى أغسطينو طبعاً : ما أجمل ما أرى فى هذا اليوم ... ! » قالها وقد كتم فى نفسه أموراً استشعرتها الزوجة المسكينة فراحت تحدق فى حذائه الممزق ممزقاً أعيت على الاسكاف ، ثم قالت : « وأين لك بالمال تستعين به على السفر ؟ » قال الزوج فى ثبات : « إن معى ما يكفينى ، لا يشغلك هذا . إن كل ما فى الكون يلد الحياة والجمال لو أن فى النفس الهدوء والدعة . إن ما يهم المرء حقاً هو أن يحب الناس ويحسن معاملتهم . لقد شغلنى هذا كل ساعات الصباح .... أفتريدين أن تقرأى ؟ » ثم قطع قصاصة من دفتره وألقى بها فى حجرها وهو يبسم ... ثم انطلق وما خلّف من شىء سوى هذه القصاصة ...

انطلق ماشياً لأنه لا يملك سوى ثلاث ليرات ؛ وكانت فلسفته قد أوحت إليه ألا يتخبط بين هذا وهذا ، يقترض ، فيضيع وقته فيما لا غناء فيه ... هذا نوع من الرياضة تعوده منذ زمان ؛ وما كان لشىء ما أن ينزع عنه رزانته أو يحول بينه وبين أن يصل إلى عمه أغسطينو ، وهو رجل سيار . لقد سار فى نشاط وخواطره معلقة بحذائه دون قدميه ، فهو يشفق عليه ويشفق ..

* * *

بلغ إيليا (أوروسى) — وهى قرية فى طريقه — ولم يحدث ما يعكر صفوه ؛ فالطريق ممهد لاحب ، والطبيعة جميلة تحنو عليه لتنسيه بعض متاعبه . لقد كانت رحلة ممتعة ، فى ناحية من الأرض سحرية ، فالشمس تتألق كأنها ماسة كبيرة ، وترسل أشعتها الذهبية فى رفق على صخور الجبل ، والحشائش تضطرب تحت نسمات البحر الرقيقة . وحين اندفع هو فى طريقه تراءت له الزهور الرقاقة — زهور الربيع الجميلة — تنفث من عطرها الشذى فى روحه النشاط ، وتذكى فى أعصابه القوة ؛ ثم ... ثم انحدرت الشمس الى مغربها ، فاستحالت حرارتها المنعشة الى برد قارس تحمله نسمات الليل ؛ وأحس الرجل أن قدميه تتنديان ، وأن حذاءه قد انفرج عنهما من هنا ومن هنا ؛ فاضطرب وخانته رزانته الفلسفية حين بدا لعينيه أنه لا يستطيع أن يصلح حذاءه أو أن يجد غيره ؛ وأنه لا يقوى على أن يحمل همّ الطريق وهمّ الحذاء الممزق معاً . وتمثل له ما يلاقيه من مهانة واحتقار حين يبدو فى دار عمه رثّ الملابس ، زرىّ الهيئة ، ممزق الحذاء ، وهو لا يريد أن يكون هو ألم نفسه وعار زوجته حين يلج دار عمه فى مثل حذائه . لا بد أن يجد حذاء ؛ ولكن كيف ؟ إنه هو لا يدرى ... وبعد فترة كان يسير فى شوارع القرية المهجورة المظلمة المدّلهة وقد سيطرت عليه فكرة الحذاء الآخر . وفى ناحية من ساحة فندق هناك صفير يشع نوراً ذهبياً قوياً جذب إيليا اليه ... جذبه لينام ليلته فى حجرة قذرة ، حيث ينام عاملان فقيران ؛ وقد كان غطيط أحدهما يستلب إيليا من أفكاره ومن نومه معاً . استلقى الرجل على فراشه وما فى رأسه غير صورة نعل جديد تتراءى له أينما هفا خياله : فى الشارع ، فى الحقل ، فى زاوية الحجرة ، فى صندوق فى الزاوية الأخرى ، ثم هناك عند الباب وكانت تحور أحياناً الى أخرى بالية تنم عن الفقر والفاقة ...

وظلّ إيليا تفزعه الريح العاصفة ، والغطيط المدوّى فى أرجاء الحجرة ؛ والساعات تمر . وتعلق

بصره بنجم يتألق فى السماء كأنه يسبح بين أمواج البحر المضطربة ؛ وخياله عند زوجته وهو جالس اليها ينشر على عينيها بعض أشعاره الرقيقة الطالية ، وعند الحياة الناعمة التى يحياها الى جانبها لو ظفر بما يملك عمه ...

وانتفض الرجل من فراشه بعد لأى وهو يضطرب ، وانحنى على حذاء العامل يريد أن يسلبه فوجده ثقيلا واسما فتركه الى حذاء الرجل الآخر ؛ غير أنه لم يجد شيئا ، وظن فى مسمعيه صوت أقدام تدب خارج الحجرة فاضطرب ووقف فى مكانه وقد سيطر عليه الحزن والفزع ؛ وبدت له خسته فحزن ... حزن حزن القلب يستشعر الخطر المحدق ؛ وحين انحنى الصوت دانف هو إلى الخارج ليرى ... ليرى الردهة خالية الا من بصيص من نور ، وإلا من قطة تحك جسمها فى الجدار ، والا من حذاء بازاء القطة ، بدا فى عينى الرجل جميلاً ... فانطلق إليه يخبئه فى ثنايا معطفه ، ثم اندفع الى الشارع فى هدأة الليل وسكونه . لقد غادر الفندق لم يشعر به أحد ، ثم أسرع ... وتراءى له وهو يسير على شاطىء البحر كأن كواكب السماء تتساقط رويداً رويداً لتغتمر فى هذه اللجة ، فقال : « ياعجبا ! أكل شىء فى الطبيعة والانسان يريد أن ينهد ... ؟ » وظل يحدث نفسه هذا الحديث وهو يخب فى الظلام بين الصخور المظلمة والبحر الداكن

ومضت نصف ساعة جلس بعدها ليلبس الحذاء المسروق . لقد بدا عليه السرور والفرح — بادىء الأمر — غير أنه مالبث أن استشعر الحسرة تفجؤه وتكاد تعصف به ، فراح يحدث نفسه : « ماذا يكون لو أنهم تبعونى ؟ سيقتلوننى لاشك . ماذا تقول زوجتى إذن ؟ ستقول : ماذا صنعت يا إيليا ؟ أفتسرق حذاء ؟ أى فرق بينك وبين من يسرق مليون ليرة ، أيها السارق ؟

واضطربت الفكرة فى رأسه : « مليون ليرة : أين هى ؟ أين أجدها ؟ لو وجدتها لاختطفتها لا أنى ولا أتباطأ ... ! » ثم تمطى وهو يبتسم لهذه الخاطرة ، ومد رجليه وحرك أصابعه فى الحذاء الجديد . ياعجباً ! لقد رانت على نفسه سحابة سوداء من الكآبة مرة أخرى ، وشعر بقدميه تنقدان ، وبأصابعه تختلج كأنها تنفر من هذا الحذاء المسروق : لقد سار فى طريقه متكاسلاً ، ومتأبطاً حذاءه ليستطيع أن يلبسه إذا تبعه أحد ؛ ثم اضطرب وتوزعته الأفكار السود ؛ فهو يلتفت الى وراء بين الفينة والفينة ليرى من عساه يتبعه ...

وانبثق الفجر كأنه شيطان مارد يحدجه بعينين فيهما البغض والازدراء ؛ يطل عليه وقد قنعته سحابة دكناء من الضباب ليبعث فى نفسه الفزع والرعب ، وليندره بالفضيحة والويل ؛ وهؤلاء الناس — عما قريب — ينسلون الى القرية ، مارين به ، وحين يسمعون قصة الحذاء المسروق يقول قائلهم : « نعم ، لقد رأينا رجلا هناك يسير مضطرباً ، وقد تأبط حزمة يخبئها تحت معطفه ... » .

ورأى — وهو يسير — فلاحاً يسير الهوينى ، فى طريقه الى القرية ، فخيل اليه أنه يحدق فيه ، ويلتفت اليه بين الحين والحين وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم

ثم ... ثم انحسر الظلام عن نهار حزين كالح ؛ وقد نشرت السحب ذوائب طويلة سوداء تصل بين الجبل الشاهق والبحر المضطرب ؛ والغربان تمر به وهى تنعق نعيقها المشئوم ؛ وقد انطوى الجبل الذى أحسه بالأمس فى هذه الناحية ؛ وبدت له الحياة عابسة تبعث فى النفس الألم والضيق ، ودوت فى أذنيه أصوات تفزعه من مكانه لأنه رأى فيها

أصوات الذين من خلفه يقصون أثره ويسخرون منه ؛ فاستبدل حذاءه القديم الممزق بالحذاء الذى سرقه ، وألقى به فى ناحية ثم انطلق ...

لقد ألقى بعض همّه حين ألقى الحذاء المسروق ، ولكنه ما يزال فى اضطرابه ، وخياله ما يفتأ يصور له أشياء ! فهذان العاملان اللذان قضى معهما ليلته ، على أثره يطلبانه بعد أن وجدا الحذاء الملقى ... سيسلبانه ثم يدفعان به إلى المحكمة ، وهناك ... وهناك ... ؛ وتراءى له جماعة يعذبونه ويعذبونه حتى يعترف ...

ماذا تقول زوجته حين يتراءى إليها الخبر ؟ وتأججت الفكرة برأسه يؤرثها الاجهاد والبرد والجوع ، فانطرح تتنازعه الخواطر المظلمة كما تتناوح الرياح الشديدة العاصفة سحابة فى كبد السماء ؛ ورجع إلى نفسه يلومها على أن طوحت به الأيام فى هذه التاهة ، يضرب فى الأرض ، ويفقد الراحة والطمأنينة فى وقت معاً ؛ ثم هو لا يطلب إلا سراباً أو أملاً كالسراب ، ومن يدرى ؟ لعله لا يستطيع أن يأتى بالحجة القاطعة يثبت بها أن أغسطينو هو عمه ... ورغم هذا فهو قد ألصق بنفسه عاراً لا يغسل .

* * *

نكص الرجل على عقبيه ممتلئ العقل ، مأخوذ اللب ، يحدق فى الحذاء الملقى فى ذهول وبلاهة ، أفيواريه التراب ؟ إنه إن فعل فما غيّر من الحقيقة التى فى رأسه ! أن هذا الحذاء مسروق ، وأنه هو السارق ...

وتردد إيليا حيناً ، ثم هوى إلى الحذاء يخفيه تحت طيات معطفه ، وارتد إلى القرية لا يستطيع أن يهبطها إلا أن يسدل الليل أستاره ، لقد غبر يوماً كاملاً لا يطعم شيئاً ، فأحس بأعصابه تتراخى ومشى الهوينى يترنح كأنه عود ذاوٍ تعصف به الرياح الهوج ، وولج الفندق ثانية وكأنه فى حلم ، وعلى شفتيه كلمة الاعتراف ؛ غير أنه وجد المكان هادئاً كأن شيئاً ذا بال لم يكن ، وما فتئ يتعلق به بصره ، ولم تحم حوله شبهة ؛ فتناول طعامه ، ووضع الحذاء مكانه الأول ، ثم ألقى بنفسه فى لجة من النوم العميق الهادىء ، فما استيقظ إلا عند ظهر اليوم التالى . وحين هم من مرقده اشترى رغيفاً مما بقى معه من مال ثم سار ...

وبدا الجو فى ناظرى إيليا — مرة أخرى — جميلاً ، والوادى كأنه يبسم فى رقة وظرف ، والنبات الأخضر تنبعث منه القوة والنشوة ، وهو يندفع فى سيره بفور نشاط وحياة على رغم هذا الحذاء الممزق الذى تعوج فيه قدماه ، وهو — هو هذا الحذاء — كان يوقظ الرحمة والشفقة فى قلوب الذين يرونه فيمنحونه بعض الخبز واللبن يتبلغ بهما

وبلغ دار عمه وقد أجهده السير وأضناه التعب ، ولكن الأمل كان يشرق فى عينيه فيدفعه الى الأمام ... لقد مات عمه منذ ساعات قليلة ، وراحت الخادم تنظر اليه فى دهشة وهى تعجب : « أأنت ابن أخيه حقاً ؟ لماذا لم تسرع الى هنا ؟ » ولكنه وقف صامتاً ، فاندفعت هى تقول : « لقد أرسل اليك منذ ثلاثة أيام وأنتظر ... انتظر طويلا وهو يذكرك ، ثم بدا له أنك نسيته ففقد الأمل . وحين أحس بالموت يكاد يقصم عوده أوصى بكل ما يملك الى اليتامى من أبناء البحارة » ...

فارتد إيليا الى داره يحمل الى زوجته الحبيبة الى نفسه خيبة الرجاء وضيعة الأمل وهو لا يستطيع أن يقول شيئاً ...

كامل محمود حبيب

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

الفصل الخامس

وعندما رأى ديجنه أن لا دواء لياسى وأننى أرد كل نصح وأقبع فى دارى أدرك خطورة الموقف فجاءنى فى إحدى الليالى ودلائل الاهتمام بادية على وجهه فذكر عشيقتى بلهجة المزدرى ، وأسرف فى التقريع بوجهه إلى كل امرأة مجاريا حوافز عقيدته ؛ وكنت منطرحا على فراشى فجلست وأسندت رأسى إلى كفى وأصغيت بكل انتباه لأقواله

وكانت ليلة ، بدأت تهب فيها الرياح فتسمعك أنين المدنفين ، وكان المطر يضرب برشاشه زجاج النوافذ ثم ينقطع فجأة فتحسب الطبيعة قد فقدت الحياة فى فترات السكون

فى مثل هذه الساعات يحكم الألم بجميع الكائنات فتهتز الأشجار كأنها تتلوى فى أوجاعها وتحنى رؤوسها حزينة عاجزة وتهرع أطيار الحقول إلى صغيرات الأشجار متزاحمة على الملجأ الأمين وتفقر الشوارع من كل عابر

وكنت لا أزال أتألم من جرحى

لقد كان لى بالأمس حبيبة وكان لى صديق ، فخانتنى الحبيبة وصرعنى الصديق فألقانى على فراش ، الأوجاع ، فأصبحت وفى رأسى من الاضطراب ما لا أهتدى معه إلى حقيقة حالى ، فكنت أحسب أن ما مر بى لم يكن سوى حلم مروّع وأننى سأجد سعادتى المفقودة إذا ما فتحت عينى لأنوار الصباح ، ثم أعود فأرى حياتى بأسرها حلماً طائشاً ساخراً بتكشف لى بغتة عما استتر فيه من خداع وأكاذيب

وكان ديجنه جالساً على مقربة منى وقد أنارت أشعة المصباح وجهه فلاحت أمارات الجد عليه بالرغم من استمراره على الابتسام كعادته

وما كان ديجنه بالرغم من صلابته وجموده إلا الرجل المخلص المطوف ؛ غير أن الاختبار كان قد نال منه وأسقطت الحادثات طرته ، وما جهل هذا الصديق الحياة فانه خبرها وأسالت كثيراً من دموعه ؛ غير أنه ادرع الصبر فاستحجرت آلامه وبات يتوقع الموت

وقال ديجنه :

— إننى وقد نفذت ما انطوت عليه سريرتك أراك تعتقد بالحب كما تصوره القصصيون والشعراء فأنت إذن تصدق ما يقال لا ما يقع فى هذه الحياة . لقد ضللت السبيل السوى فى تفكيرك ، فان أمعنت فى السير وقفت بوجهك المصائب والويلات

وهل يصور الشعراء الحب إلا كما يجسم النحاتون الجمال ، وكما يبدع الموسيقيون الأنغام ؟

إن أرباب الفنون وقد دقت أعصابهم ووهبوا

الحس المرهف يختارون أنقى عناصر الحياة وأبدع رسوم المادة وأروع ما فى الطبيعة من نبرات

قيل إنه كان فى أثينا عدد كبير من الفانيات الفاتنات فعمد براكستيل إلى تصويرهن الواحدة بعد الأخرى ، ثم استعرض مجموعته مستبعداً عيوبها ومستنبطاً منها مثالاً كاملاً جامعاً المحاسن على أنواعها هو رسم الزهرة آلهة الجمال

وعلى هذه الوتيرة جرى أول إنسان أوجد آلة الموسيقى مقرراً قواعدها وأحوالها ، فانه ما وضع الأنغام إلا بعد أن تنصت طويلاً إلى تغريد البلابل وحفيف الغصون

وهكذا أوجد الشعراء أيضاً الأسماء السرية التى مرت على شفاه البشر من جيل إلى جيل ، كدفنيس وكلويه وهيرو ولياندر وبيرام وتيسبه

تلك أسماء لم يبدعها الشعراء إلا بعد أن ابتلوا الحياة وعرفوا من المحبة سريعها وبطيئها فى الزوال ، وبعد أن شهدوا إلى أية درجة من الهوس يبلغ الهيام أحياناً منقياً الطبيعة البشرية من أدرانها

فاذا أنت فتشت فى الواقع عن مثل هذا الحب المطلق الثابت فكأنك تفتش فى ميادين الجماهير عن نساء يضارعن الزهرة فى روعة جمالها ، أو كأنك تكلف بلبلاً إنشاد أجمل مقطوعات بيتهوفن إيقاعاً

ليس الكمال من هذا الوجود ؛ وكفى الذكاء البشرى أنه فاز بتصوره ؛ فاذا ما طمع فى الحصول عليه رمت به شهوته إلى الخبل والجنون

افتح نافذة غرفتك ، يا أوكتاف ، وتطلع ! أترا تشرف منها على مدى لانهاية له فتشعر أن لا حد لهذه الآفاق ؟ ولكن هل لك بالرغم من تصديق عقلك لشعورك أن تتصور ماهية اللانهاية ؟ أيمكنك أن تدرك ما لا يحد وأنت ولدت فى الأمس وغداً ستموت ؟

لقد جنّ الكثيرون فى كل أنحاء العالم أمام هذا المدى الفسيح ، وما نشأت الأديان إلا من الاستغراق فى التفكير فى أسراره . ما قطع كاتون عنقه ، وما استسلم المسيحيون الأسود والبروتستانت للكاثوليك إلا لأدراك المطلق المتعالى عن كل حصر وتحديد

إن جميع شعوب الأرض يبسطون الأكف نحو هذا المدى الفسيح قاصدين الارتماء إليه . وفاقد الرشد يطمح إلى امتلاك السماء ، أما العاقل فيكتفى بالاعجاب والخشوع ويرتمى جاثياً على ركبتيه كابحاً جماح شوقه

إذا كان فسيح المدى يعجز إدراكنا فكيف نتوسل به إلى نيل الكمال وقد حتم علينا ألا نتجه إليه فى أى شىء وألا نتطلبه من أى شىء ، لا فى المحبة ولا فى الجمال ولا فى السعادة ولا فى الفضيلة ، ولكننا مع ذلك ملزمون أن نتوق إليه لنبالغ فى المحبة والجمال والسعادة ما يمكن لنا أن ننالهما

افترض ، يا أوكتاف ، أن فى غرفتك لوحة من ريشة رفائيل ، لوحة تحسبها سالمة من كل عيب ، فاقتربت منها يوماً مدققاً فيها فوجدت فى رسم أحد أشخاصها خطأ فاضحاً كعضو مكسور أو عضلة نافرة من مركزها الطبيعى — كما يقال عن إحدى العضلات فى ساعد مصارع — فانك تشعر بالكدر ولا ريب ، ولكنك لا ترمى بلوحتك إلى لهيب الموقد من أجل هذا العيب بل تكتفى بأن

تقول — إنها غير كاملة وإن فى أقسامها الأخرى ما يثير الاعجاب

إن فى العالم نساء تردهن طبيعتهن وما فى عواطفهن من الاخلاص عن اتخاذ عشيقين فى زمن واحد . ولقد خيل اليك أن عشيقتك من هذه الفئة ، ولقد كان خيراً لك لو أنها منها . ولكنك تحققت خيانتها فهل فى ذلك مايدعوك إلى احتقارها والاساءة إليها وإلى الاعتقاد بأنها تستحق حقدك وتغمتك ؟

افترض يا أوكتاف أن عشيقتك لم تخدعك وأنها لاتزال تحبك دون سواك ، أفلا ترى حتى فى هذه الحالة أن حبها بعيد جد البعد عن الكمال وهو حب بشرى حقير يتحكم فيه خبث هذا العالم وأضاليله ؟ أفتنكر أن هذه المرأة قد استسلمت قبل ما نلتها أنت إلى رجل ورجال وأن غيرك سينالها بعدك أيضاً ؟

ارجع إلى رشدك ! إن ما يدفعك إلى اليأس الآن إنما هو اعتقادك بكمال كنت حليت به من تحب فاذا هى ساقطة لا حلية لها

ولكنك إذا ما رأيت اعتقادك على حقيقته واتضح لك أنه توهم واغترار بشرى تدرك أن لا فرق بين السقوط دركة وبين التدهور دركتين على شفير العيوب البشرية

إنك لن تستطيع أن تنكر أن حبيبتك قد نالها غيرك قبلك وسينالها غيرك بعدك أيضاً . ولكنك ستقول لى إنك لا تهتم لهذا ما دام حبها . أما أنا فأقول لك إذا كان سواك قد تمتع بها فما يهمك أن يكون وقع ذلك فى الأمس أو منذ سنتين ؛ وما أن سواك سيتمتع بها بعدك ، فما يهمك وقوع ذلك فى هذا المساء أو بعد سنتين . إذا كانت هذه المرأة لن تحبك إلا إلى حين فما يهمك أن قصر حبها على ليلة أو طال إلى سنتين

ألست رجلا يا أوكتاف ! أفما ترى الأوراق تتساقط عن أغصانها والشمس تشرق فتغرب ؟ أفما تسمع نبضات ساعة الزمان فى كل خفقة من خفقات فؤادك ؟ فأى فرق لدينا إذاً بين غرام سنة وغرام ساعة من الزمان ؟ أفليس مجنوناً من يتطلع من نافذة تقدرها الكف ليرى المدى الذى لا نهاية له

أنت تلقب المرأة التى تحبك عامين دون أن تخونك بالمرأة الشريفة ، ولعل لديك مقياساً خاصاً تعرف منه ما تقتضيه قبلات الرجال من الزمن لتجف على شفاه النساء

إنك لتجد فرقاً كبيراً بين المرأة التى تستسلم للحصول على المال وبين من تستسلم طلباً للذة ، تجد مثل هذا الفرق أيضاً بين من تبذل نفسها إجابة لداعى الكبرياء ومن تبذلها فى سبيل إخلاصها ؛ إن بين من تشترى من النساء من تقدر لها ثمناً يزيد على ثمن سواها ، وبين اللواتى تطلب فيهن تمتع حواسك من تنال ثقتك دون سواها ، وبين من يدفعك الغرور إلى نيلهن من تباهى بالظفر بها بأكثر مما تباهى بامتلاك أخرى سواها ، وبين من تخلص لهن أنت من نهبها ثلث قلبك فى حين أنك لا تهب الأخرى سوى ربعه ، وتهب غيرهما نصف هذا القلب ، وذلك تبعاً لما تقدره لأحداهن من التهذيب والعادات وما تراه لها من كرامة الأصل وروعة الجمال واعتدال المزاج ، وتبعاً للظروف الطارئة أيضاً ولما يقوله

الناس وبحسب تأثير الساعة ، وما تناولت من مشروب مع عشائك

إن النساء يستسلمن إليك أيها الصديق لا لسبب الا لأنك فى شرخ الشباب المتقد ، ولأن استدارة وجهك لا عيب فيها ، ولأن شعرك مسرح باعتناء ، ولكنك لا تصافك بهذه الصفات لا تعرف من هى المرأة

إن أول ما ترمى الطبيعة إليه إنما هو استبقاء النوع ، لأن الحياة أينما تجلت من قمم الراسيات الى قعر البحار تفزع من الموت وتنفر من الفناء ، وما فرض الله هذا الناموس إلا استبقاء لخليقته فوضع اللذة العظمى فى الاتصال الجنسى بين الأحياء

إن النخيل ترتعش غراماً عندما يرسل الى أنثاه ذرات الحياة تحملها جارفات الرياح . واذا قاومت الوعل أنثاه فانه لا ينى ينطحها حتى يبقرها . والحمامة تنتفض تحت جناحى زوجها كأرق المشيقات احساساً

وهكذا الرجل ، عندما يضم رفيقته بين ذراعيه أمام عظمة هذا الوجود يشعر بالشرارة الالهية التى خلق منها تهب مشتعلة فى صميم فؤاده

أيها الصديق ، إذا ما ضممت إلى صدرك امرأة ملؤها الصحة والجمال وشمرت بسكرة الغرام تفجر الدمع من مآقيك وبالخلود فى صميم فؤادك يدفع إلى شفتيك بالقسم تزفره زفراً يثبات حبك إلى الأبد ، فلا تكبح جماح نفسك حتى ولو كانت المرأة التى تضم بين ذراعيك من بنات المواخير . ولكن حذار : ألا تميز بين الخمرة التى تكرعها والثمل الذى يسود مشاعرك منها ؟ ولا تحسبن الكأس هى الكوثر الذى تشربه . وهكذا لن تتفجع اذا ما رأيت هذه الكأس محطمة أمامك فى إحدى الليالى ، وما المرأة الا وعاء من صنعة الخزاف سريع سقوطه وسريع تحطمه

وجه شكرك لله لأنه سمح لك بأن تلمح السماء ، فلا يخدعنك فى جوانحك خفقان تحسبه خفوق جناح ، فان الأطيار نفسها لا يمكنها أن تخترق السحاب وفى الأعالى طبقات لا هواء فيها . أفما رأيت القنبرة ترتفع محلقة إلى مسارح الضباب وهى تغرد لترتمى بعد تحليقها ميتة إلى أخاديد الحقول

اكرع من الحب ما يكرعه الشارب المعتدل ، وإياك أن تصبح سكيراً

إذا كانت عشيقتك أمينة مخلصة ، فأحبها من أجل أمانتها وإخلاصها ؛ وإذا لم تكن فيها هذه الصفات وكانت فتية وجميلة ، فاحبها من أجل فتوتها وجمالها ؛ وإذا لم يكن لها من مزية سوى الملاحة وخفة الروح ، فاحبها من أجل ذلك أيضاً ؛ وإذا لم يكن لها شىء من جميع هذه الصفات ولها تعلقها بك فلا تمنع حبك عنها ، فما يجد الرجل فى كل مساء امرأة تعشقه

وإذا ما عرفت أن لك مزاحماً فى حب من تهوى فلا تشد ناصيتك ولا تعلن أنك ستنتحر . إن غرورك يخدعك فيخيل إليك أن حبيبتك تخونك بالتصاقها بسواك ، غير أنك إذا عكست نظريتك الكذوبة فقلت فى نفسك إن حبيبتك تخون مزاحمك بالتصاقها بك ، فأنك لترى النصر فى جنبك لا فى جنبه :

إياك أن ترسم لنفسك خطة تلتزم سلوكها ،

فلا تقل إنك تريد حباً مطلقاً لا شرك فيه لأنك إذا ما قلت بهذا المبدأ ستضطر ، وأنت إنسان متقلب بالطبع ، أن تستدرك خطأك فتضيف إلى قولك كلمة (على قدر المستطاع)

كن راضياً بالزمان كما يجيء ، وبالهواء كما يهب ، وبالمرأة على ما هي عليه

إن المرأة الأسبانية وهي من الطراز الأول في النسوية ، تحب بلا شرك ، فقلبها مخلص مضطرم ولكنها تخفي خنجراً تحت أثوابها فوق هذا القلب . والايطالية تتقد شهوة ولكنها تفتش عن عريض المنكبين وتقدر قدر عشيقها كما يأخذ الخياط قياس زبائنه . والانكليزية متحمسة تستسلم للكآبة ولكنها باردة متعجرفة . والألمانية رقيقة الشعور ولكنها باهتة جامدة . أما الفرنساوية فانها ظريفة رشيقة ولكنها أكذب من الشيطان

لا تلق على المرأة تبعة ما هي عليه ، لأننا نحن أوجدناها في حالتها بتشويهنا في كل سانحة ما أوجدته الطبيعة فيها . وما الطبيعة بغافلة في عملها فانها تعد العذراء للعشق حتى إذا خرج الولد من أحشائها تساقط شعرها وهبط نهدها واحتفظ جسمها بآثار جراحه ، فالمرأة لم تخلق إلا لتكون أماً ، ولقد يبتعد الرجل عنها بعد أن تكون أدت مهمتها فيستغفره الجمال المفقود ولكن طفله يتعلق بأذياله ويشده إلى مسكنه باكياً . هذي هي الأسرة وذلك هو الناموس الطبيعي وما يهتدي إلى السبيل السوي من تحول عنه

إن فضيلة أهل القرى قائمة على أن المرأة في مجتمعهم إنما هي آلة للتوليد وللارضاع ، كما أنهم هم أنفسهم آلات حرث وزرع . فليس هنالك شعور مستعارة ولا أصباغ ولا أدهن ؛ غير أن العشق عندهم سليم من الجرب فلا يخيل لهم أنهم في افترانهم يكتشفون عالماً جديداً . وإذا كانت نساؤهم محرومات من الحس المرهف في الشهوة فانهن سليمات من العلل ؛ وإذا ما خشنت ملامس أيديهن فان خشونتها لم تتطرق إلى قلوبهن

لقد ذهبت الحضارة مذاهب لا تأتلف والنظم الطبيعية ، فان العذراء الكاعب سجينة وراء الأقفال وهي المخلوقة للشمس والهواء الطلق ، ومن حقها أن تشهد مصارعة الشباب كما كانت تشهدها بنات لاسيديمونيا لترجع حرة وتحب مختارة ، ولكن سجنها لا يحول دون تطرق العشق إليها ، فانها تجد الفساد في وقوفها أمام مرآتها فيدب إليها التحول من جمودها ويذوي في سكون الليالي جمالها المختنق متشوقاً إلى الهواء إلى أن يأتي يوم تسحب فيه من سجنها فجأة وهي لا تعرف شيئاً ولا تحب شيئاً وتشتهي كل شيء . وتتولى إحدى العجائز تعليمها بالقاء كلمة سفيهة في أذنها ، ثم تؤخذ بعد هذا الدرس لتلقى على فراش رجل مجهول يغتصبها اغتصاباً

ذلك هو الزواج أو بالأحرى ذلك هو منشأ الأسرة المتمدينة ...

وتمر الشهور فاذا بالفتاة تقذف إلى الوجود بطفلها ، وإذا بشعرها يتساقط وبصدرها يتدلى فوق جسم شوهته التجاعيد

لقد فقدت هذه المسكينة جمال العاشقات قبل أن تعشق ، فهي لا تعرف لماذا حبلت ولماذا أصبحت أماً . . . .

يقدم الطفل لهذه المرأة ويقال لها : أنت الآن أم ، فتجيب قائلة : لست أماً . إذهبوا بهذا الطفل إلى مرضع فما فى ثديى لبن له

وهل يدر اللبن صدر مثل هذا الصدر المغتصب ؟

ويؤيد الزوج هذا الرأى معلناً أن تعلق الطفل بأمه ينفره منها

تجلس هذه المرأة على سرير مخاضها الدامى فيوشى بالأطالس وتبذل العناية لشفائها من داء أمومتها ، وما يمر الشهر حتى تراها تجوب المسارح وتنتقل من مرقص الى مرقص ، ويرسل الطفل الى مرضع فى إحدى القرى ، أما الزوج فيدلج الى المواخير تحت جنح الظلام

ويدور بالمرأة عشرات الشبان يتدفق بيانهم بكلمات الحب والاخلاص والوله والعناق الدائم فتسمع من أفواههم كل ما كان يدور فى خلدها فلا تلبث أن تختار أحدهم لتضمه الى صدرها . ويندفع هذا المختار الى تدنيسها ثم يتحول عنها ليداعب الحظ فى مؤسسات القراطيس المالية

قضى الأمر فليس لهذه المرأة أن تعود أدراجها ، تستخرط فى البكاء ليلة ثم ترى أحداقها حمراء مما ذرفت من دموع ، فتتخذ عشيقاً آخر تسلو به همها فيسلمها الثانى الى ثالث الى أن تبلغ الثلاثين أو تتجاوزها ، فيدب الفساد قاضياً فيها حتى على الاشمئزاز ، وتصادف فى ليلة من ليالى جموحها يافعاً يتدفق الجمال من محياه وتتدلى طرته السوداء على إشراق جبينه ، ترسل عيناه شرارات الحياة وتخفق فى فؤاده الأمانى العذاب ، فترى فيه خيال شبابها وتتذكر ما تحملت من شقاء ، فتسارع الى تلقين هذا الفتى ما تلقنته هى من الحياة ، فتقضى عليه بألا يحب طوال عمره

هذه هى المرأة كما أردناها ، وما عشيقاتنا إلا من هذا الطراز . ولكننا نخفى معهن أطيب الأوقات . فاذا كنت ذا حزم ولك ثقة برجولتك ، فاتبع ما أشير به عليك . استسلم بلا وجل لتيار الحياة . تمتع ببنات الحانات والمواخير وبسيدات البيوت والقصور . كن ثابتاً ومتقلباً . كن حزيناً ومرحاً فى وقت واحد ، ولا تبال أخدعتك المرأة أم حفظت عهدك ، ما دمت واثقاً من أنها أولتك حبها

إذا كنت رجلاً عادياً لا مزية لك ، فكن محترساً فى اختيارك . وعلى كل لا تضع نصب عينيك أية صفة من الصفات التى تتمنى وجودها فى عشيقاتك

أما إذا كنت ضعيفاً وفى فطرتك صفات السود لا مزايا السيد ؛ واذا كنت تشعر أن فى جذورك اندفاعاً الى التغلغل حيث تمتر بحفنة من تراب ، فالأجدر بك أن تتخذ عدتك المقاومة لأنك اذا ما استسلمت لضعفك ، فلا تتوقع نمو فروعك حيث علقت أصولك ، لأنك ستجف كالنبتة العليلة لا تورق أغصانها ولا تنور أزهارها ، فينسرب نسغ حياتك الى الجذوع الغريبة وتبقى أوراقك كأوراق الصفصاف باهتة متراخية صفراء . وعندئذ لن تجد ما يروبك غير دموعك وما يغذيك سوى قطع قلبك

أما اذا كنت متحمساً تؤمن بالأحلام وتطمح الى تحقيقها فانى أقول لك بكل صراحة : ان الحب وهم لا حقيقة له

وما أنا بمنكر عليك صحة مذهبك فى الحب لأنه عبارة عن أن يهب الانسان جسده وروحه معاً ، بل هو اندغام شخصين فى ذات واحدة تتمشى تحت الشمس وتجول فى الحقول المزهرة تلتف بأربعة معاصم وتفكر برأسين وتشعر بقلبين

ما الحب الا ايمان وعقيدة بوجود السعادة على هذه الأرض

ما الحب الا المثلث المتألق بالنور على قبة هيكل الوجود ، فاذا أنت أحببت مشيت حراً تحت قبة هذا المعبد والى جنبك المرأة التى لا يفوتها ادراك سر خشوعك عند وقوفك لفكرة تخطر لك أو عند زهرة تلمحها فتتوجه بنظرة استغراق الى هذا المثلث السماوى

إن خير ما فى الوجود هو أن يتمتع الانسان ببذل ما أعطى له من قوة ، لذلك كانت العبقرية أروع ما يستهوى النفوس ، ولكن اذا ما ضاعف الانسان هذه القوة بضمه فكراً الى فكره وعاطفة الى عاطفته فانه ليبلغ السعادة العظمى وفيها يتناهى ما وهب الله للناس فى هذه الحياة ، لذلك كانت المحبة أفضل من العبقرية

تلك هى المحبة فقل لى الآن اذا كانت هذه العاطفة العليا هى ما نسميه محبة فى قلوب نسائنا

وكيف يكون حبهن حباً وما المحبة فى نظرهن إلا الخروج مقنعات من بيوتهن وتوجيه الرسائل السرية والسير بذعر على رؤوس الأقدام وإنشاء الدسائس وبذل التهكم ورشق اللحاظ الفواتر وارسال تنهدات العذارى وارتداء الأثواب النفيسة وخلع هذه الأثواب أخيراً وراء الأقفال لاذلال مزاحم وخيانة زوج والنكاية بعشيق

أجل ما المحبة فى نظر نسائنا إلا التلهى بالأكاذيب كما يتلهى الأطفال بلعبة الكعين . تلك هى فحشاء القلب وهى أقبح من الدعارة الرومانية ، وذلك هو المسخ المولود سفاحاً من الفضيلة والرذيلة ، تلك هى مهزلة الحياة التى تمثل بالهمس والغمز حيث يتجلى كل شىء صغيراً لا شكل له فى رشاقته فكأنه تمثال صينى لخلقة من عجائب المخلوقات ؛ تلك هى الجيفة تتحكم فى الجمال والقبح وفى كل ما هو سماوى وجهنمى فى الأرض ؛ تلك هى الأظلال التى لا حقيقة لها ، بل هى رمة العظام تتداعى من كل هيكل أقامه الله فى الحياة

هذا ما قاله ديجنه فتعالت أمامى نبراته اللاذعة تحت جنح الظلام

(يتبع) فليكس فارس

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)

فى أسبرطة

العشاق يتآمرون

ملخص ما تقدم

« سقطت طروادة وعاد كل المحاربين من اليونان إلا أوديسيوس فطمع أمراء الأقاليم المجاورة فى زوجته الجميلة بنلوب وحاصروا بيتها ، وأحزن ذلك إلهة الحكمة ميرفا — أو بالاّ أثينا — فحرضت ابنه تليماك على أن يقف فى وجه العشاق ، وأن يبحر إلى بيلوس ليسأل أميرها نسطور عن أبيه وأبحرت هى معه فى صورة أمير البحر منتور وهو لا يدرى أنه هى ... وأكرم نسطور وفادة تليماك وقص عليه ما كان بعد سقوط طروادة وأرسله معززاً مكرماً إلى أسبرطة بعد أن أيقن أنه منتور أمير البحر الذى يصحب تليماك إن هو إلا ميرفا . وقد ذهب تليماك مع أكبر أبناء نسطور إلى أسبرطة ليسأل ملكها منالايوس — زوج هيلين التى كانت سبباً فى حرب طروادة — عن أبيه »

وصل الركب إلى أسبرطة بعد أن غوّر فى

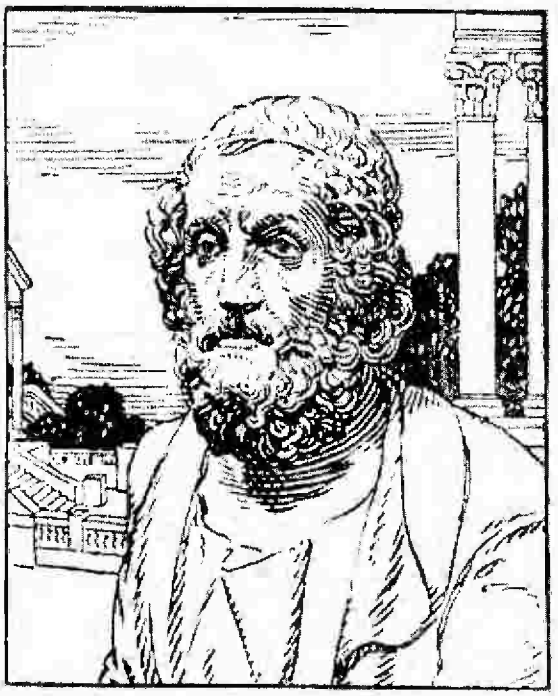

هوميروس

وهادها وأنجد ، وانطلق تليماك وصاحبه من فورهما إلى باب منالايوس الملك حيث وجدا ، لحسن الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ؛ ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياتهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه وندماؤه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويتطربون ... ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حدب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل غادات أسبرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنة ألكتور العظيم ؛ ثم بابنته الفتان اللعوب الطروب التى رزقها على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة ثينوس

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحهما إتيون ، كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدثه عنهما . . « إن لهما لهابة و إن عليهما لرواءً ، فهل

يأذن لها مولاى أم يأمر فتردها من حيث أقبلا ؟ »

وأومأ الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب اليهما ، يسير بين أيديهما إليه ... « ... إذ كيف يُرد عن طعامى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء »

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب الى الوافدين الكريمين فحيّا وسلم ، وحل اللُّجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلألأت فى الأنوار الوضاءة والسُّرُج الوهاجة ... ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما الى الحمامات المرمرية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكة ثم ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما وبش ، وأجلسهما الى جانبه على مقعدين وثيرين ، وهما فى دهش من ذاك المنظر العجب . وأقبلت فتاة فسبت على أيديهما الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من أفخر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ فى إيناسه لهما والحفاوة بهما ، ويُنظرهما حتى يفرغا من طعامهما فيخبرانه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تليماك صاحبه فقال :

« بيزستراتوس يا صديقى ! ما أجل وما أفخم وما أروع ؟ ! هذا الحفل الباهر يتألق فى الذهب والفضة والعاج والكهرمان ودروع النحاس ! أبداً ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولمب فى شعاف جبل إيدا ! أية ثروة وأى كنز ؟ !

وسمعه منالايوس الملك فقال :

« بنى : لا تقرن أحداً منا — نحن بنى الموتى — الى سيد الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار وكنوز ، فقد سحت فى أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر الغوالى من كل فج ... من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا وإيرمبى ... ومن صيدا وليبيه ... ورؤوس الشاء والوعل هذه ... الوعل الوحشى السائم ... والشاء التى تمدنا بخيرها بغير حساب ... لقد طوفت فى الآفاق وتركت فى كل منها ذكرى . ولا غرو ، فقد نبأكم آباؤكم بذكر منالايوس الملك الذى دك المعاقل وهدم القصور ... ما أنس لا أنس هذا القصر العتيد الذى جعلت عاليه سافله بما فيه من أذخار وقُنى ، وددت لو كان فى قصرى شىء منها ، وود الأغريق لو حصلوا فى بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح ! يا ويح نفسى ! يا رحمتا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا ثمة ! ! لشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشدّ ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ، ولا سيما صفيى وخليلى وأعز أودائى علىّ ... أوديسيوس ! ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعرى يا صديقى فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحى ترزق ؟ أم ثويت فى بطحاء بلقع ؟ يا ويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجك الملتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تليماخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، الى حومة الوغى وحلبة الحمام ... » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهتاف باسم والده فنشج نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يُذرى شئونه فى طرف ثوبه ... بين دهشة منالايوس وحيرته ، وذهول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشأ الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة كأنه ديانا ربة القوس الذهبية ...

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يدا أدرستا وعناية أكليب ، ثم أُحضرت الطرف والهدايا واللهى ... فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج پوليب أمير طيبة ، عروس الدائن المصرية ؛ وتلك عشر بِدَر من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الابريز ... يقدمها كلها ملك أسپرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء ... ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس ... الصغير تلياخوس ... الذى تركه أبوه صبياً فى المهد من جراء حرب إليوم المشئومة . »

وقال الملك : « وأنا مثلك يا هيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفتر العينين واسترسال اللمتين [1] بما كان لأوديسيوس ؟ ! لقد ذكرت ما قاسى صاحبى من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم »

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ! ولكنه خجول حيى ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فانى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تلياخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أيان قد ذهب ... وهاك ابنه المكلوب يجتر أشجانه ، وتطحن فؤاده أحزانه . »

وشُدِه البطل — ذو الشعر الكهرمانى — فقال :

« يا للآلهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ! أنت ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، وما يزال يناضل الويلات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقائى لشدت لك مدينة فى آرجوس تنيه على الدائن وتزهى على القرى : ورفعت لك عماد قصر منيف طالما كنت أخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ومن بعد .. ولنلذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع ... آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء ... فحرمتك كل شىء ، حتى الأوبة إلى أرض الوطن ! »

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تلياخوس ، وأذرفت الملكة ، وانبجس الدمع من عينى پزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها ، ثم قال : « حسبك أيها

(١) اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن

الملك ! لقد تذاكرنا ، أنا وصاحبي ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وابن أبى وأبى فى سبيلك كذلك ! ألا تذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناى برؤيته ! أوه يا ابن أودودا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخى ! ... »

وتعطف الملك فطيّب ابن تسطور بكلمات عاليات ، وأمر الندمان فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا فى آكالهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذْهِب الأحزان فى كأس تليماك ، وكأس صاحبه ، لايعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل . وهى قطرات عجيبة أهدتها الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية بولدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبين !

وتكلمت هيلين ، فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقى الجمعان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة المتيدة ، وكيف قابلها فى حجرة باريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره ومخيمه ، وأنها برّت فلم تنبىء أحداً بوجوده .. ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع باريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن ڤينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به باريس من أنها ستهبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة[1]) . « واخجلتاه !

(١) الأياذة — قضى باريس بالتفاحة لڤينوس وحرم منها منيرفا وجيرا وذلك سبب عداتهما للطرواديين

لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لاناقة لى فيها ولا جمل ... »

وأعذرها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جأشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان المحمولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم أو بعض يوم ، وقد عيينا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس[1] الصناديد . وكنت أنا — سقى الله الشباب — واحداً منهم ، فما أنسى قط حين أقبلت فى عصبة ذوى أيد من مذاويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً) فجعلت أنت تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لترى هل اختبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبؤون . تالله لقد كدت أرد عليك نداءك حينما هتفت باسمى ؛ وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحداً منا خدع فنبس ببنت شفة ... وا حَرَبا !!! لقد صمتنا جميعاً ولكنك عاودت ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلبى ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهق روحه !!! ولم يُمْنِه حتى أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم المنكرون »

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف

(١) اسم يونان القديمة

تليماخوس واستأذن الملك فى الانصراف ليأخذ كل نصيبه من النوم ، فتأذن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأمرن الى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن الملاحف والوسائد والحشايا ، ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بيزاستراتوس وتليماخوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى سريره ، وناما ... فى ... ... سمور وفى قاقم وفى سنجاب

وتهاويل غير ذاك من الر

قم ومن سندس ومن زرياب[1]

ونهض الملك والملكة كذلك فدخلا القصر ، واستلما لأطيب الرقاد

* * *

وذرّ قرن أوروزا ، ربة الفجر ، فى المشرق الوردى ، فهب الملك وأصلح شأنه ، ورف بازيه الأشهب فوقف على غاربه ، ثم مضى الى مجلسه حيث لقى تليماك فى انتظاره ، فحيّا وجلس وبدأ حديثه فقال :

« أى بنى : تليماخوس ! أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت رحلك الى هنا ؟ الى رحاب ليسديمون[2] فى فلوات البر وسروات البحر ؟ ألأمر عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك ؟ »

وأجاب تليماك : « مولاى الملك ! منالايوس العظيم ! لقد جئت أتحسس خبراً عن أبى وأقبلت أحدث عن أعدائه الذين آووا الى بيته فما يزعمون يستنزفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذاك ينافس بعضهم بعضاً فى كبر وزهو وخيلاء . . . من أجل زوجه ! ! يا للعار ! إنهم استباحوا كل شىء ... كل نعمه وكل شائه ، ولم يعفوا آخر الأمر عن عرضه . انى أستجيرك يا مولاى وأضرع اليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى ؟ هل قضى تحت أسوار إليوم ؟ أم غالته يد المنون فى ركن آخر من أركان الأرض ؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك ، وأعز أودّائك عليك ، فبكل آلاء ذلك عندك أستحلفك أن تصدقنى ... ماذا تعرف من أخباره ، وماذا عسيت سمعت من أنبائه ؟ »

وتنفس الملك تنفسة عميقة وقال :

« يا أرباب الأولمب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا أوديسيوس فى عرضه ؟ ! ألا باءوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعلة التى أجاءها المخاض فولدت فى عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها[1] ! حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينرفا ! أبوللو[2] ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بفيلوميليد العتى من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزفتهم ... فطب نفساً يا بنى ! إنى منبيك بما علمته عن أبيك من (بروتيوس) راعى الأعماق ، وكاهن الأغوار

ضلت بنا الفلك بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطئان مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان فى مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التى تجرى من تحتها الأنهار ،

(١) الشعر لابن الرومى لم نجد أحسن منه فى ترجمة أبيات هومر

(٢) من أسماء اسبرطه

(١) جمع غفر وهو ولد الوعل

(٢) كان أبوللو من خصوم اليونانيين فى حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء

ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفد الصبر ، وفرغ الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رئت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت إلينا ، وكانت لنا غوثاً أى غوث ، كنت أجلس وحدى فى منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبى وأكثر الملاحون يرتادون الماء بشصوصهم[1] عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غذاءً لنا ، إذ برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق بروتيوس ، وتهادت حتى كانت تلقائى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مضيا ، ولا تلتمس مخرجاً ، ولو هلك كل أصحابك ! »

ولم أبال أنى شدهت ، فسألتها قائلاً : حسبك يا ربة ! إنى ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها بمرضاتى ، بل كان ذلك قدراً على مقدوراً ؛ ولكن خبرى بحقك إذ الآلهة تعلم كل شىء — من من أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ . . . وهل مقدور لى أن أرتد الى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ . . » .

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبئك فأصدقك : إنك الآن مقيم بشطئان مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، بروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا البحر ، فاذا استطعت أن تتفقده فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فانه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهى بك سالماً غانماً الى بلادك . بل ربما — إذا طلبت اليه ذلك — وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير أو شر خلال سفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صفى السماء وحبيب الآلهة » .

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموتى أن تقبض على هذا الآله البحرى الكريم ؛ ولم أخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت لها أنه ربما ولى دبرة إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً . بيد أنها طمأنتنى ، وذكرت أن أباها يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جون قريب حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة من عجول البحر ، من ذرارى هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة . . . « فاذا كانت هذه الساعة فانى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به حتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإياكم أن يرهبكم بشىء أبداً ؛ إنه سيكون تارة شيلارابيا ، وتارة سيكون ناراً تزمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ، وأخرى يكون أفعواناً هائلاً ينفث السم . . . ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تفتلوه فتهلكوا . . . فانه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التى رأيتموه عليها ، ثم ترونه بعد ذلك أسلس قياده ، وهدأ وتطامن . . فاذا فعل ذلك سألكم عن حاجتكم ، فدعوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فانه مجيبكم عما تسألون . »

(يتبع)

دريني خشبة

(١) الشص حديدة عقفاء يصاد بها السمك (السنارة)

سر أبى الهول

مسرحية شعرية فى أربعة فصول

للشاعر الفرنسى موريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

الفصل الثانى

« قصر باريس إجلانو فى الجيزة على ضفاف النيل ، القصر خال من كل شىء ، لا مكتبة ولا كتاب ، هنالك أزهار فى آنيتها ، تمثال صغير فى إحدى الزوايا ، وفى الأعماق شرفة تطل على الصحراء كأنما تطل على بستان من الرمل الذهبية المتوهجة . والزمن شفق ! »

المشهد الأول

باريس (على مقعد ممدود) وسانتيا شقيقته إزاءه

سانتيا — الجو جميل والفصل بهى . . .

باريس — المحى هذه اللمعات البيض البعيدة

سانتيا — هذه ممفيس كما تعلم وينابيعها التى تجرى كأنها تجرى من الأحلام

(يرى قرويات حاملات جرارهن)

باريس — روما ! إن تماثيلك لا تبلغ مثل هذه الروعة : أراهن — وهن يمشين — كأن الحياة تكاد تدب فيهن . سانتيا ! ليس الجمال فى أطواء الكتب . لا تمثل الكتب شيئاً ؛ إنها ليست إلا لحداً !

سانتيا — أو بعض شىء ندى يرشف !

باريس — (يرى النسوة كأنما يؤلفن صفاً من الجمال لا ينفصل عن العيون) أليس هذا جميلاً حقاً ؟

بلى ! ليس الجمال فى المكاتب ، إنما الجمال فى ظل القدم ، فى الظل اليونانى ، وفى الأمم التى يمكن إيقاعها وأوزانها تحت الأرض ، حيث تؤلف كل اثنتى عشرة خطوة فى الليل بيتاً من الشعر

سانتيا — إننا غادرنا من أجلك الحدائق المؤرجة بالياسمين كالأزهار الندية ، وقد هجرت الكتابة يا باريس ! فلماذا لم تعد تكتب شيئاً ؟

(يشير باريس بيده)

لاحق لك فى الصمت ! إننى أسمع مكتئبة إلهاماتك ، التى تتحرى عن كلماتك . أنت لا تستطيع أن تبقى هذا العندليب صامتاً . ألا تود أن تكتب شيئاً ؟

باريس — أبداً !

سانتيا — وهذه الأبيات ، وهذه الأغانى الحادة المشوشة التى تتنهد فى نفسك ؟

باريس — سأصرفها عنى ! بل سأطردها كأنها أفاق متشرد ! على أنى فى بعض خطراتى لا أكتمك أننى أسمعها صارخة شاكية راجية أن تبقى وأن تحيا . يرجونى تهدى قائلاً : ضمنى فى كتابك ؛ وألمى الفتى يهتف بى : « خلدنى » ؛ وخفوق قلبى يصيح : « دعنى أبقى » . مع أن كآبات مساء شاكية ، لأنها أضاعت أجنحتها ، تود أن تبقى خالدة

سانتيا — إنها لجريمة ! . . .

باريس — ذلك حسن ! على أنى فى الحقيقة أعبد وأقدر هذه الآثار الرائعة المعجبة التى لم أقم بها

سانتيا — أتبكى ؟

باريس — ماذا تريدين منى ؟ بلى ؟ . . . إننى أذرف الدمع تهتاناً بلا انقطاع ! لقد كنت قبلاً أعبر فى قصائدى الأولى عن فتونى ، ولقد كان صراف الرنان فى الليل مشرقاً ، أما اليوم — ياسانتيا التعسة — ماعسانى أصنع فى شعرى ؟ وأغانىّ المدهشة قد فقدت رقتها وأصبح أجلها ما طفح بالدموع

سانتيا — إذا شدا العندليب فى شدوه رنة البكاء

باريس — فى الآلام الكبيرة لا يستطاع الغناء !

سانتيا — ألا تجد نفسك — خلال سكينتها — آسفة على سماء إيطاليا وعلى ذلك المساء المانى الذى نثرت فيه روايتك على الشعب الهائج

باريس — لا آسف على شىء

سانتيا — ولا على القطعة الممزقة : ذلك الأثر الذى لم يعد يجدى شيئاً . قطعه الممزقة صفعت المدينة جمعاء ، ولم يبق منه إلا نسخة واحدة . إننى فكرت فيه وفكرت فى تلك المزق المتناثرة فى الليل . هذا فؤادك يا باريس ! فؤادك الكئيب الزاهق مزقته فى كل ورقة تطير ! ألا تأسف على ذلك اليوم المقطوب ؟

باريس — لا ! وصنعت فى ذلك اليوم ما أصنعه دائماً ، لأننى ما كتبت لحظة إلا طارحاً فؤادى على الناس . إننى غير آسف على شىء

سانتيا — ولكن ألا تأسف على صوت إزابيلا ؟ ألا تأسف على ذلك الكيان الملتهب الذى بنظرة واحدة منه عرف أن يصنعك ! إنها يا باريس كانت إلهة فنك ؛ فهل تستطيع أن تفر من صوتها ومن نظرتها كل دهرك ؟ وهل نسيت أنك أصبحت تصنع أجمل أشعارك لتشدو بها ؟

باريس — تلك كانت القيثارة التى يفتش عنها فؤادى ، واليوم أصبحت غير محتاج إليها . لقد كسرت قيثارتى وأصبحت لا آسف على شىء : أقول لك : ما يهمنى كل ذلك ؟ وهل الشجرة التى عانقت يوليو تفكر فى ما تناثر من أوراقها فى الخريف ؟ إننى أحب هذه العزلة التى أحيا فيها الآن !

قد بلغنا الجيزة ليلاً كغرباء راحلين ؛ أنت ومارسيللوس وأنا ، لم نجد من ينقل متاعنا إلا هذا الفتى المصرى ؛ وكانت لكل هذه العيون الممدودة هيئة عينيك . لا صحف ولا جلبة ، ولا فتيان ولا مصورون ! كل هؤلاء لم يشقوا سبيلاً إلى الصحراء ولم يجدوا منفذاً إليها ؛ فهذه النخلة المهملة لا تعرف أشعارى ، وأبو الهول الجبار يسخر — فى أعماق الليالى المعربة — من هؤلاء المفسرين أحاجى الحياة ، الجاهلين أحجيته العجيبة ولغزه الغريب ، وإنى لأرانى مفتوناً بهذه الظلمات الجديدة ، وبهذه الغبطة التى لا تجعل منى رجلاً مشهوراً . . .

ماعسانى أقول ؟ إن اسمى — هنا — شىء مجهول ، ولا شىء من كل الجلبة التى قامت حوله بلغ هذا المكان . كذلك الزهو الانسانى يتلاشى ويشعر بصغاره وحقارته على أقدام الأهرام . لا أحد يعلم اسمى ، ولا أحد بغى كلمة من كل ما صنعته

(يفتح الباب وتدخل فتاة مصرية وتمثل أمامهما كأنها وحى خفى من رموز المدينة)

الفتاة — الشاعر إيجلانو !

المشهد التالى

الفتاة — (بتردد) :

الشاعر إيجلانو

سانتيا — ولكن . . .

الفتاة — هذا هو يا سيدتى

باريس — إنك واهمة

الفتاة — ولكنى جزت المدينة بحجابى الملتهب لأحظى برؤيته ، والبيت الصغير الذى تحرسه نخلة

سوداء اجتذبني كأنه معبد في الطبيعة ، لأن لنا قلوباً إن لم يكن لنا وجوه

باريس — خطأ !

الفتاة — نحن اللواتي نظل وراء أقنعة الكآبة حتى في النهار يأتي إلينا « الغرب » مع نسائم البحر

باريس — ولكنه لا يحيا هنا

الفتاة — تخطر صورته بين جوانحي دائماً ، صورته المحبوبة ، صورة هذا الذي يُبكي عليه أشد بكاء . بلى ! أهواه ؛ وكل قصيدة من قصائده الملتهبة تقدر أن تعبر عن نفسي بلهجة أوضح من لهجتي . إني أنطق مع أبياته ، وأحس مع ذكرياته ، وأتألم لهتافه ، وأحب مع تنهداته

باريس — ولكنه مات

الفتاة — (بلهفة) مات ! يا إلهي ! ليس ذلك ممكناً

باريس — مات ؛ ولي الفخر بمعرفته ؛ لقد كان لي صديقاً

الفتاة — مات . . .

باريس — أنت تبكين . . .

الفتاة — أحس أن الوجود كله أمسى محدوداً

باريس — (محطماً الصورة من بين يديها)

وهذه الصورة . . .

الفتاة — أصونها وأقدسها منذ عامين

باريس — أنظري ما أنا صانع بها

(يمزقها) والآن فابكي أيضاً !

الفتاة — إلهي . . .

باريس — ابكي الآن على شيء ؛ ابكي على صورة . . .

الفتاة — (مصعدة بصرها قليلا في وجه باريس)

هذا هو أنت ؛ فهمت الآن ، لا أحد يقدر على أن يأتي بهذا التجديف الشيطاني ... أنت إيجلانو لأنك مزقتها ، أنت باريس إيجلانو الذي أعبده

باريس — احملي قلبك فاني أحطمه

الفتاة — ولكني رأيتك

باريس — شاعر كبير بالقرب منك ؛ هذا هو أنا ! فلتوقن نفسك الطامحة ؛ هذا ما كنت تتمنينه

الفتاة — إذا كانت نفسك تريد في كل آن الهزء والسخرية ، فلا تفسد تلك الصورة التي أحفظها لك ، فكل ما أنا مدينة لك به من بهاء نور ، وقمم عالية ، وكل ما أودعته في صدري من أحلام ، ومثل أعلى ، وعظمة وجلال

باريس — أكاذيب وأضاليل !

الفتاة — المثل الأعلى !

باريس — إن هو الا قناع عتيق مزوق !

الفتاة — لقد كان غذاؤك لي خيراً من الشهد والخمر

باريس — أسكتي ! لقد كنت كاذباً

الفتاة — واسكت أنت ، وليكن الآن ما كان يجنوح ذوقك إلى الأسرار ، فأنت رفعت قلوبنا بأنينك وبكائك

باريس — إنه لحد فارغ ؛ بل ليته كان لحداً ! إنه ليس بلحد ، وهل العندليب الذي يبث شجواه على الأغصان ينادي موسيقياً لينقل دموعه ، وذلك الشقاء الأليم — بعد أن يبلغ القمة — ألا يسكت إلى الأبد ؟ لا ؛ اننا لم نقل شيئاً عن حظنا الشئوم ، ومن هذه المائدة الدامية لم يبق لك إلا البقايا

الفتاة — انني سأقنع بهذا اللحد الفارغ ... ولكن ماذا ! ان باريس إيجلانو حي يرزق ؛ فما يهمني الليل والسكون الكدري ؟ انه حي ؛ انه في صدر الحياة ، لن تكون الأرض خالية فارغة

(وتخرج وهو ينكب على الطاولة كأنه مجذوب بفكر سري ، يفتح درجاً وينظر في صورة ثم يضعها أمامه ، ويكتب ... وتخرج سانتيا)

المشهد الثالث

باريس — (منفرداً)

لا لا ... لا أستطيع

(قوة غريبة تدفعه الى الكتابة)

هذه هى المرة الأولى من بعد فصول فارغة وشهور خالية . لماذا ، لماذا ، لماذا يا إلهى ؟ هذا الموكب القديم ؟ الكلمات ؟ وأية كلمات تجديني نفعاً ؟

نفيتك عنى عشرين مرة أيتها النسمة الهابة من عالم الآلهة ، لا أريد هبتك علىّ ، ولا أريد أن أميل إليكِ . فى هذا المكان المنعزل لا أحد يشير إلى أنك تنزلين على الأرض

لا كتاب عندى : لا شىء . . . الهواء . . . الفضاء . . . الريح : ومارسيللوس وحده يتلو « ڤرجيل » حالماً . ولا يدل هذا البيت على أنه بيت شاعر ، وإنما يدل على راحة نفس قلقة ، التهمها قلقها

بلى ! هذا هو العنوان الوحيد الذى خلد لها فى الوجود ، وهذه صناعتى الوحيدة ، إننى قلق . . . فلماذا لا تزالين تعودين نفسى وتهيجينى أيتها الآلهة التى أكره زيارتها فى كل أصباحى ؟ ولماذا توسوسين للنفس بأبيات جديدة ؟ لا أود أن أكتب شيئاً ؛ أفهمت ؟ إن فكرتى الحميمة تذهب إلى أبعد من عالم الكلمات ، وأنا غادرت كل عالم التعبير والألفاظ

(يكتب بإملاء غير منظور)

« يا أبا الهول الأعظم ، يا وثن العدم !

الذى تدعونى إليك بعيداً عن العالم !

الصحراء هى أوقيانوسك ، والكواكب هى أحداقك !

تبدو لى كأنك علامة ساطعة !

خلال أعماق الأعصار والأعمار

أنت الذى شهدت صرعة الآلهة وشعبذت مع الغيوم

هذه غيوم !

الأبدية هى البساط الذى تسحب عليه مخاليك ،

وغذاؤك — حين تطلب الغذاء — أحلامنا »

(يتم الكتابة ، فيدخل مارسيللوس شاحب الوجه ، يدنو من باريس وباريس ما زال يكتب كالمجذوب بهذا الوحى . ينظره مارسيللوس وفجأة يطرح باريس ما كتبه على الأرض حين يرى مارسيللوس)

المشهد الرابع

باريس — مارسيللوس !

مارسيللوس — ماذا توارى عنى ؟

باريس — لا شىء

مارسيللوس — أشعراً ؟

باريس — (ناظراً فى مكان بعيد حيث يبدو أبوالهول كمارق فى الضباب المذهب)

ذاك من أجله ، لا من أجل هذا العالم القائم . اليكها ! ها هى ذى مطروحة على الأرض !

مارسيللوس — أتمنعها عن أخيك أيضاً ؟

باريس — وما عسى يجدى ذلك ؟ إنك تدرى الشحوب الذى تقنع به وجهانا !

مارسيللوس — ولكن ...

باريس — (يناول منه كتاباً) :

ڤرجيل ، دائماً !

مارسيللوس — أتلوه باستمرار ، إننى أعود دائماً إلى طريق النور حيث فتح « ڤرجيل » أجفانى . يخيل إلىّ أنه ينادى : « أنت مارسيللوس » والشفق المذهب مغمور بالسلام الهادئ ، يطفو عليه صفاء وخشوع ، أعود دائماً إلى بيته المظيم القائل « ستغدو مثل مارسيللوس » فهل يا ترى أحول يوماً ذلك الجوال الذى اختلسه الزمان من

مشعله ؟ وهل أموت قبل أن أستنفد فكرتى ؟ قبل أن أضوى من الحياة وقبل أن أجد « ڤرجيلاً » يحيانى فى النهاية خالداً ؟

باريس — ولماذا تتكلم عن الموت ؟

مارسيللوس — أتعلم لماذا أحلم به ؟

إنى إذا احتضرت قبلك على هذه الرمال المحرقة ، وإذا قدر لى أن أكون السابق وأنت اللاحق ، وإذا قدر أن يكون للأصغر أمر إرشادك إلى الطريق فى هذه الظلمات حيث ينهزم آخر فشل ، إذا قدر لك يا أخى البكر أن تفتقنى أنت قبل مشعلى لتنزل فى مثواك ، فأقسم لى بأنك تتناول القيثار المهمل المحطم قطعاً على الشاطئ بقلب شجاع . أقسم لى بأنك تجعلنى خالداً فى شعرك . إن جزع الموت يخف على وقعه إذا جئتنى خلاله وإذا قدمت واضعاً على لحدى إكليلاً من الغار ... أقسم !

باريس — (بابتسامة)

إنى مقسم لك ... ولكن لماذا يساورك هذا الشك فى نصيبنا ؟ إننا سنموت معاً فى يوم لا يزال بعيداً ، نموت كهلين هادئين عارفين سره الأكبر

مارسيللوس — (منتهداً)

إننى فى ريب من ذلك ؛ إننى لا أجد طريقاً أمام قدمى الفتيتين ... ويخيل إلى أن كل شىء منته أو محدود ، ولكن هذا ليس له جمال غريب ؟ جماله بألا نرى على هذه الأرض الصفراء التى طرحنا عليها القدر ، لا نرى من كل شىء إلا شبحاً وممبراً ، لا نكتهل ولا نتألم ولا نحب . نرى كل شىء بعيداً دون أن نألفه أو نأنس به . غير مبروحين الا وردة الغد !

أخى ! ليس هذا القدر بقبيح ، أقسم لك على ذلك

بقول البيت الناقص : « ســـتغدو أنت كمارسيللوس » وإن حظه كله يتمثل فى ذلك الغد

(يبتعد قليلا وباريس يهز كتفيه باسما ثم يعود مارسيللوس على أثره)

مارسيللوس — نسيت أن أنبئك شيئاً عظيما . على قيد خطوتين منى فى الطريق أتعلم أنى لمحت « إزابيلا موتى » ؟

باريس — (بدهشة)

إزابيلا موتى ...

مارسيللوس — هى ذاتها

باريس — آهى !

مارسيللوس — لم تكن وحيدة ، كان يتبعها أرجانتى وجدتها هيلين

باريس — إن هذا لجنون : لا أستطيع أن أراها ... لا ! لا أستطيع — إن الشاعر قد انتحر فى نفسى ، وإننى أطرد كل ما يحدثنى الماضى عنه باسان عذب

إزابيلا ... إنه اسم غدا بعيداً عنى ... إنها هى التى فررت منها فرارى من القدر

(يقرع باب الحديقة)

مارسيللوس — آه هم أنفسهم

باريس — لالا ؛ لماذا ضعفت ؟ إن قلقى يذود عنى إزاء الفن الى الأبد ... لتدخل ...

(مارسيللوس ينطلق ليفتح الباب ويقف لحظة جامداً)

نعم : لتدخل ! لقد كنت أخاف قبلاً ، والآن يتراءى لى كل شىء إزاء أبى الهول بخاراً متلاشياً . إذهب الى لقائها ، ولتأت ولتعلم أن كل شىء — حيث يقيم أبو الهول — سحاب عابر ! إنها أصبحت — عندى — لا شىء

إزابيلا — (صائحة)

باريس !

(تمد يداها ثم تسقطان على فرعها)

هذا الذى كان يكتب لى قبلاً

(يتبع) مأخيل هندراوى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر